بلاغة الأسلوب الخبري في القصة القرآنية

قصة (مريم) عليها السلام نموذجاً

إعداد

د. محمد رضا بن عبد الله الشخص

أستاذ علوم البلاغة والنقد العربي المشارك

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تمهيد:

تتصدر دراسة الأسلوب الخبري مباحث علم المعاني أحد علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع) ويندرج هذا الموضوع في أول أبواب هذا العلم، ويأتي ــ غالباً ــ بعنوان: تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، أو: الخبر والإنشاء. ويبدو أن اهتمام الباحثين بدارسة الأساليب الإنشائية غلب على تناولهم للأسلوب الخبري، وفي دراسة سابقة أعدها الباحث في هذا المجال تناولت: (الدلالات البلاغية للإنشاء الطلبي في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي[1]) تمت الإشارة إلى عدد من الدراسات التي وجهت اهتمامها نحو (الأساليب الإنشائية) ومن بينها: (الأساليب الإنشائية في سورتي البقرة وآل عمران من الوجهة البلاغية[2])، ورسالة ماجستير بعنوان: (النداء في القرآن الكريم[3]) إضافة على عدد من الرسائل العلمية التي درست الأساليب الإنشائية في الشعر[4]. أما نصيب الدراسات البلاغية للأساليب الخبرية فقليلة جداً مقارنة بدراسة أساليب الإنشاء، ولعل ذلك من أهم الدوافع لتبني هذه الدراسة، أضف إلى ذلك أن فهم القرآن الكريم والوقوف على وجوه الإعجاز فيه يتصدران اهتمام البلاغيين، والقصة القرآنية بما تنطوي عليه من مقاصد عديدة من بينها نشر الحكمة، والدعوة للخير، وتهذيب الطباع، والوعظ، والإرشاد ونحو ذلك، توفر مادة غنية لهذه الدراسة فيما يتعلق بأنواع الأساليب الخبرية، من ابتدائي وطلبي وإنكاري، وخروج على ما يقتضيه ظاهر الحال ــ أحياناً ــ كما يستدعي تعدد تلك المقاصد

أغراضا بلاغية عديدة للأساليب الخبرية التي تضمنتها هذه القصة، وتلك الأمور من شأنها أن تكشف عما تميزت به القصة القرآنية من قوة معانيها، وعجيب أسلوبها، وحسن بيانها، وفي قصة (مريم) عليها السلام ــ النموذج المختار لهذه الدراسة ــ "تواجه قصة مفصلة مكتنزة بأكثر من حدث وموقف فقد خُصّصتْ لها سورة تحمل عنوان (مريم)، ومجرد كونها تستغل في سورة: يعني، أن هذه الأقصوصة لها أهميتها دون أدنى شك[٥]." ومن خلال هذه القصة نتعرف على أخبار غير عادية ومن أبرز تلك الأخبار:

١- مجيء (مريم) عليها السلام بعد سنوات من عقم أمها عن طريق النذر بأن تجعل ما في بطنها محررا لخدمة بيت الله، وتلك وظيفة يقوم بها الذكور خاصة، وعلى الرغم من مجيئها (أنثى) إلا أن الله تقبلها.

٢- نزول الطعام على (مريم) وهي في محرابها الخاص في الهيكل من السماء مما يثير رغبة زكريا في أن يحصل على رزق غير محتسب وذلك يدعوه إلى مناجاة ربه بعيدا عن عيون الناس بأن يرزقه ولداً يُوكِلُ إليه حمل الرسالة من بعده.

٣- حَمْلُ (مريم) عليها السلام من غير بَعْل.

٤- جريان الماء بقربها في تلك البقعة الجرداء لتشرب منه عذبا فراتا سلسبيلا.

٥- تساقط الرطب عليها من جذع يابس حلوا جنيا.

٦-مخاطبة عيسى (عليه السلام) وهو ما زال في المهد صبيا للقوم الذين أنكروا على أمه ولادته، فكفَّ بذلك ألسنتهم.

وقد ورد ذكر (مريم) عليها السلام في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة في اثنتي عشرة سورة على النحو التالي:

(البقرة: ٨٧/٢٥٣ وآل عمران: ٣٦/٣٧/٤٢/٤٣/٤٤/٤٥ (مرتين) والنساء: ١٥٦/١٥٧/١٧١ (مرتين) والمائدة: ١٧ (مرتين)/ ٤٦/ ٧٢/٧٥/٧٨/١١٠/١١٢/١١٤/١١٦ والتوبة: ٣١ ومريم: ١٦/٢٧/٣٤ و المؤمنون: ٥٠ والأحزاب: ٧ والزخرف: ٥٧ والحديد: ٢٧ والصف: ٦/١٤ والتحريم ١٢).

أما ابنها (عيسى) عليه السلام، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة وقد ورد ذكره مقترنا بذكر أمه في ستة عشر موطنا منها[٦].

وللارتباط الوثيق بين قصة (مريم) عليها السلام وقصتي نبي الله (زكريا) ــ عليه السلام زوج خالتها أو أختها ــ الذي تولى كفالتها ليكون مدبرا لشئونها، وقائما على تربيتها، وابنها (عيسى) ــ عليه السلام ــ فإن الحديث عن قصة (مريم) عليها السلام، قد يستدعي ــ أحيانا ــ شيئا من قصتي زكريا وعيسى ــ عليهما السلام ــ ولا يخرج هذا بالبحث عن هدفه المرسوم له، لأن غاية الدراسة الكشف عن بلاغة الأسلوب الخبري في القصة القرآنية، وإن أتخذت قصة (مريم) عليها السلام نموذجا لها، فما ذلك إلا رغبة في تحديد مجال الدراسة تخلُّصا من التوسُّع الذي قد يؤدي إلى تشتت البحث.

وتحقيقا لهذا الغرض، فإن التركيز سيكون على أكثر النصوص القرآنية تناولاً لهذه القصة، ويتمثل ذلك في نصين اثنين، أحدهما جاء في سورة (آل عمران) ويبدأ من الآية التي تحمل الرقم (٣٥)، وهي قوله تعالى "إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" وينتهي هذا النص القرآني مع نهاية الآية التي تحمل الرقم (٤٨) وهي قوله تعالى: "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ" ويتكون هذا النص من أربع عشرة آية.

أما النص الثاني فقد ورد في سورة (مريم) ويتكون من ثمان عشرة آية، ويبدأ من الآية التي تحمل الرقم (١٦) وهي قوله تعالى: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا" وينتهي مع نهاية الآية التي تحمل الرقم (٣٣) وهي قوله تعالى على لسان (عيسى): "وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا " وربما استأنستْ الدراسة ببعض الآيات التي أشارت إلى هذه القصة في غير هاتين السورتين.

وتسهيلا لبيان بلاغة الأسلوب الخبري في هذه القصة سيكون البحث مقسما إلى ثلاثة أقسام على النحو التالي:

أولاً- بلاغة الأسلوب الخبري في قصة أم (مريم) عليها السلام.

ثانياً- بلاغة الأسلوب الخيري في قصة (مريم) عليها السلام.

ثالثاً- بلاغة الأسلوب الخبري في قصة ابــن (مــريم) نبــي الله (عيسى) عليه السلام.

وأسأل الله تعالى العون والهداية والتوفيق.

أولاً- بلاغة الأسلوب الخبري في قصة: (امرأة عمران) أم مريم عليها السلام:

في التوطئة للحديث عن (امرأة عمران) عليها السلام، أشار القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه قد اصطفى أهلها على العالمين مع آدم ونوح وآل إبراهيم، فقال عز جلاله: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ[٧]" أي: اختارهم، وجعلهم صفوة العالمين حيث جعل النبوة والرسالة فيهم، وأولهم آدم عليه السلام أبو البشر وكان من ذريته أنبياء ومرسلون، ونوح عليه السلام الذي حدث في عهده الطوفان العظيم، فهلك من البشر من هلك ونجا هو وأهله في الفلك العظيم، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم ظهر إبراهيم عليه السلام وتتابع من بعده النبيون والمرسلون من ذريته وآله، وكان من أرفعهم قدرا وأجلهم ذكرا (آل عمران) سواء كانوا (موسى وهارون) ابنا عمران بن يصهر، أو كانوا (أم مريم، وعيسى، ومريم ابنة عمران) وعمران هذا ابن ماثان من نسل سليمان بن داود، والعمرانان من نسل إبراهيم عليه السلام، وإن كانت القرائن في هذه السورة ترجح أن (آل عمران) المقصودين في هذه الآية هم مريم وأمها وابنها لورود قصتهم في هذه السورة بينما لم تذكر السورة قصة موسى وهارون، فدل ذلك على أن أبا مريم هو المقصود ههنا والله أعلم[٨].

والذي يتجه إليه البحث في هذه الآية الكريمة، هو أسلوبها الخبري الذي جاء مؤكدا من طريقين، الأول: استعمال أداة التوكيد (إنَّ) في بداية الآية قبل ذكر لفظ الجلالة (الله) ثم استعمال الفعل (اصطفى) العائد فاعله إلى (الله)، فيصير بذلك التأكيد على اصطفاء هذه النخبة من الرسل من هذين الوجهين، سواء منهم المذكورون بأسمائهم وهما: آدم ونوح، أو المشار إليهم ضمنا، وهم من تناسل من آل إبراهيم وآل عمران، وفي ذلك دليل على مكانتهم الرفيعة وجلال قدرهم، لأن الانتقال في الحديث عنهم جاء بعد بيانه سبحانه لطريق الحق، وأن الفوز والفلاح مشروط باتباعه، ثم ذكر من اختصوا بمحبته ووقع عليهم اختياره ليجعل منهم الهداة إلى ذلك الطريق القويم الداعي إلى طاعته والعمل بما يرضيه، وخبر الاصطفاء هذا يحمل دلالات عدة منها:

أولاً- التنبيه إلى أن هذه النخبة من البشر ليسوا كسائر الناس بالنسبة لمكانتهم عند الله، فهم أكثر الناس إيماناً وأصدقهم طاعة وأحرصهم على العمل بما يرضيه عز وجل، ولذلك كله استحقوا المنزلة الرفيعة التي جعلهم الله فيها.

ثانياً- الإشارة إلى أن ذلك الإيمان القوي بوحدانية الله والطاعة الخاصة ابتغاء مرضاته قد اتصف بها هؤلاء ونقلوها إلى ذرياتهم عن طريق التوجيه والإرشاد والتربية الصحيحة (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٩]) فلا عجب بعد ذلك أن يسمع الله مناجاتهم له فيستجيب لدعائهم.

ثالثا- التنبيه إلى أن ما كان هذا شأنه مع الله فإن الله هو مولاه وهو نصيره، معه في السراء والضراء، يكفيه شر العباد، ويهبه خير ما أراد. وقد وهب الله سبحانه لعبده زكريا عليه السلام ــ على الكبر ــ يحيى عليه السلام، كما وهب لامرأة عمران ــ مع عقمها وكبر سنها ــ مريم عليها السلام "روي أنها كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك عليَّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمته، فحملت بمريم[١٠]" وفي الآية التي بعدها: "ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [١١]" جاءت (ذُرِّيَّة) بالنصب على البدل من الآلين، فهما ذرية واحدة يتشعب بعضها من بعض، فآل إبراهيم، وهم: إسماعيل وإسحاق وأولادهما من نسل إبراهيم عليه السلام، وكذلك آل عمران موسى وهارون، أو عيسى وأمه ينتهي النسب بهما إلى إبراهيم عليه السلام[١٢].

"وقد يكون المراد بكون (بعضها من بعض) أنهم أشباه وأمثال في الخير والفضيلة والتي كانت سببا في اصطفائهم، على نحو قوله تعالى: " الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ[١٣]" وفي هذه الآية الكريمة ما يفيد بأن المذكورين في الآية السابقة والمخصوصين بالاصطفاء هم على درجة واحدة في جعل الله النبوة والرسالة فيهم، كما أنهم على درجة واحدة في جعلهم صفوة للعالمين، أما ختام هذه الآية بالأسلوب الخبري (والله سميع عليم) فهو خير توطئة لما بعده،

إذ يفيد أن الله سبحانه كان سميعا لما قالته (امرأة عمران) في مناجاتها له، وهو عالم بنيتها، وعلى هذا، جاء ختام الآية التي بعدها بتكرار الأسلوب الخبري ــ على لسان امرأة عمران ــ مؤكدا بمؤكدين اثنين في قوله تعالى على لسانها: (إنك أنت السميع العليم) فاجتمعت الأداة (إنَّ) مع تكرار ضمير المخاطبة عن طريق ذكر الضمير المنفصل (أنت) بعده مباشرة. إضافة إلى مجيء (السميع العليم) معرفتين بـــ (أل) التعريف وذلك ثناء على الرب أثناء المناجاة بأنه ــ لا غيره ــ هو السميع لدعائها وضراعتها، والعليم بإخلاص نيتها وصدق رجائها، وذلك مما يحسن في الدعاء برجاء القبول، والتفضل من قبله سبحانه وتعالى بالإجابة للداعي.

وبعد تلك التوطئة تبدأ قصة (امرأة عمران) على النحو التالي: " إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[١٤]" وقد روي: "أن الله أوحى إلى عمران أني واهب لك ذكرا مباركاً، يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذني، وجاعله رسولا إلى بني إسرائيل، فحدث امرأته (حَنَّة) بذلك، وهي أم مريم فلما حملت بها كان حملها عند نفسها غلاما ذكرا[١٥]".

وتتضمن هذه الآية الكريمة أربع جمل، جاءت اثنتان منها بأسلوب إنشائي، واثنتان بأسلوب خبري، استهل كل منهما بأداة التوكيد (إنَّ)، ونبدأ بالجملة الأولى في الآية (إذ قالت امرأة عمران)، فقد أولها كل من الأخفش والمبرد على تقدير: (واذكر إذ قالت امرأة

عمران) ومعقبين على ذلك بقولهم، ومثله في كتاب الله تعالى كثير[١٦].

أما الجملة الثانية فتتضمن مخاطبتها لربها قائلة: "إني نذرت لك ما في بطني محررا" وفي طيات هذا الخبر مقابلة النعمة بالشكر، فامرأة عمران ــ هنا ــ بعد أن منحها الله سبحانه القدرة على الإنجاب، بعد اليأس منه بسبب العقم أولاً، وكبر السن ثانيا، أرادت عن طريق النذر المشار إليه في الآية الكريمة أن تعبر عن شكرها لله الذي وهبها على الكبر هذا الحمل، بأن تهبه لخدمة بيته المقدس ليكون من سدنته، واستهلال قولها بأداة التوكيد (إنّيْ) يوحي برغبتها الشديدة وحرصها الأكيد وعزمها الصادق على تنفيذ ذلك النذر، وما رجاؤها إلاَّ قبول الله سبحانه له، ولذا أعقبت هذه الجملة بقولها: (فتقبل مني) وهو إنشاء يحمل معنى التوسل والرجاء، ليعقبه الأسلوب الخبري المؤكد في نهاية الآية (إنك أنت السميع العليم)، فالتقبل: أخذ الشيء على الرضا، وأصله من المقابلة، لأنه يقبل بالجزاء، ويحمل معنى الجملة دلالة الإخلاص في النية، وطلب الرضا من الله تعالى. "وهذا كلام من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته[١٧]".

وتأتي الآية ــ التي تحمل عنصر المفاجأة في القصة ــ بعد هذه الآية وتتضمن ست جمل، وجميع هذه الجمل خبرية باستثناء أسلوب النداء في قول أم مريم: (ربّ)، وهو نداء حذفت من (يا) النداء، أو طويت عنه، وجاء هذا الطي لياء النداء في الآية السابقة أيضا في

قولها: (ربّ إني نذرتُ لك ما في بطني محررا)، ويطرد حذف حرف النداء في النظم القرآني عند نداء الرب ولم يرد مع (ياء) النداء في القرآن الكريم إلا في موضعين فقط وهما: الآية الثلاثون من سورة الفرقان، والآية الثامنة والثمانون من سورة الزخرف[١٨]. وفي غير هذين الموضعين نجد أن حرف النداء قد طُوي، "وهذا الطي ينبئ بخضوع الداعي، ويشعر بشدة قربه من الله عز وجل[١٩]". وهذا هو نص الآية بتمامه: " فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[٢٠]" وفي الآية انتقال من الحمل المنذور للبيت المقدس إلى الوضع مباشرة دون مقدمات (فلما وضعتها قالت) وذلك ينبئ عن أن الحمل ثم وضعه بعناية من الله دون آلام أو تعسر في الولادة بل كانت ولادة ذلك الطفل بسهولة ويسر، ثم يأتي قول الله سبحانه على لسانها: (رب إني وضعتها أنثى) وقد قررت أثناء الحمل نذر ما في بطنها محررا لبيت المقدس، وكانت تظن أن ما في بطنها هو ذكر، وعلى هذا لم تشترط في نذرها بعبارة ــ إن كان ذكرا ــ وكان المعروف عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى، ولذا فقد خشيت أن نذرها لم يقع الموقع الذي يستحق القبول من الله سبحانه، فصارت كأنها تعتذر لربها في إطلاقها ذلك النذر، ويكاد يجمع البلاغيون على أن فائدة الخبر في هذه الآية الكريمة، في قوله تعالى على لسان أم مريم: (إني وضعتها أنثى) الحزن والألم والحسرة، إن هذا الكلام: "قالته تحسرا على ما رأت من خيبة رجائها وعكس

تقديرها، فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرا، ولذلك نذرته محررا للسدانة، ولتكلمها بذلك على وجه التحسُّر والتحزُّن قال الله تعالى: (والله أعلم بما وضعت) تعظيما لموضوعها، وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه. ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور. وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا، فلذلك تحسَّرَت[٢١]."

وفي هذا السياق ينبغي الإشارة على استجابة امرأة فرعون لهذا الحدث المفاجئ ــ على الرغم من احتمال تأثيره على موضوع النذر وتبعاته ــ وفي ذلك ما يلائم شخصيتها العبادية التي تتصف بأن تكل الأمور إلى ربها وترضى بقضائها وقدره. وأما قولها: (وليس الذكر كالأنثى) فقد ورد ضمن سياق يؤكد أنه خبر (لازم الفائدة)، لأن زوجها عمران أخبرها بأن الله أوحى إليه بأنه واهب له ذكرا مباركاً، وجاعله رسولا إلى بني إسرائيل، ومعلوم بأن الأنثى لا تكون رسولاً، وهي ــ هنا ــ غير قادرة على فك الغموض الذي يلف ذلك الموقف وذلك الحدث[٢٢]. والواضح ــ هنا ــ نفي المساواة بين الذكر والأنثى فيما يتعلق بصلاحية أحدهما للقيام بمهمة سدانة المقدس، وهو (الذكر) وعدم مناسبة هذه الوظيفة بالنسبة للأنثى ويحمل هذا الأسلوب الخبري أكثر من دلالة، وهذه الدلالات على تعددها ملائمة للمقام الذي استدعى هذا القول، ولعل أهم هذه الدلالات التي تتضمن سبب هذا القول ما يلي:

١- ما يتفق مع شرعهم هو تحرير الذكور دون الإناث.

٢- إن ما تتعرض إليه الأنثى من عوارض النسوان كالحيض وغيره لا يمكنها من الاستمرار في خدمة موضع العبادة بخلاف الذكر.

٣- كون الأنثى أضعف من الذكر، فهو أصلح منها للخدمة لقوته وشدته وقدرته على التحمل.

٤- قد يلحق الأنثى شيء من العيب بسبب اختلاطها بالناس أثناء الخدمة، وليس هذا ينطبق على الذكر، فربما لحق بالأنثى بعض التهم بسبب ذلك الاختلاط ولا تهمة تلحق بالذكر عند الاختلاط، وجميع هذه المعاني تستدعي التفريق بين الذكر والأنثى في هذا المقام.

ثم انتقل الكلام ليحكي عن أم مريم قولها: (وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ) والأسلوب الخبري ــ هنا ــ يبدأ بأداة التوكيد (إنَّ) ليشير على عدم ترددها في هذه التسمية، والتي يقابلها في العربية: (خادمة الرب) أو (العابدة) ويحمل هذا الخبر فائدتين:

الأولى: الإشعار بالتقرب إلى الله والتأكيد على عزمها بأداء النذر، وذلك رجاء من الله ليتولاها ويعصمها.

والثانية: اختيار هذه التسمية ليكون الاسم مطابقا للفعل التي أعدتها أمها له عن طريق التحرير.

ومما يؤكد رجاء أم مريم، وطلبها من الله أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، قولها بعد ذلك: " وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" وفي هذا القول: خبر وضع موضعا ينوب عن الإنشاء، لأن قولها: (أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) جملة دعائية، وهي خبرية لفظا، إنشائية معنى، وهي عدول عن قولها: (اللهم أعذها وذريتها من الشيطان الرجيم) أي: أحمها وأجرها والعدول من الإنشاء إلى الخبر ينطوي على غرضين بلاغيين في هذا القول: الأول، فيه تأدب مع الله سبحانه إذ عدلت عن (الأمر) أعذها، إلى الخبر، كما في قولك: (يغفر الله لنا ولكم) هو أكثر تأدبا مع الله من قولك: (اغفر لي ولهم). وأما الثانية: ففيه إشعار بالرغبة في تحقيق الحماية والعصمة لهذه المولودة ووقوعها عليها من الله سبحانه[٢٣].

ثم يأتي بعد ذلك فوله تعالى: "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ" واستهلال هذه الآية الكريمة بالفعل (تَقَبَّلَهَا) فيه دليل على استجابة الله سبحانه لدعاء أم مريم ورجائها له في قولها: (فَتَقَبَّلْ مِنِّي) ثم قولها (أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، وفي استعمال الفعل المزيد (تَقَبَّلَهَا) بدلا من الفعل (قبلها) شدة اعتناء الفاعل بإظهار ذلك الفعل، إذ يفيد فعل (التقبل) في الآية المبالغة في إظهار القبول، وهذا ما يفيده

ما جاء من الأفعال من باب (التَّفَعُّل) كالتصبر والتجلد ونحوهما، وأما مجيء المصدر (قبول) من (قبل) فإنه يفيد معنى القبول، وهو الرضا، على وفق الطبع لا التكلف، "فذكر التقبل ليفيد الجد والمبالغة، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع، بل على وفق الطبع، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها، وهذا الوجه مناسب معقول[٢٤]."

وقد وصف القبول في الآية بأنه (قبول حسن) لكونه خاصا بهذه الطفلة لا غيرها، فقد علم الله تضرع أمها وصدق رجائها بقبول الله لها، فتقبل الله تعلك الجارية على الرغم من صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد[٢٥]، وفي الخبر الذي يليه من هذه الآية الكريمة، قوله تعالى: " وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا " يفيد الخبر العناية التي حظيت بها هذه المولودة من قبل الله تعالى، إذ تولى شأن تربيتها الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، وذلك عن طريق تكليف (زكريا) عليه السلام بكفالتها، وهي في كل ذلك تحت عين الله ورعايتها، فقد وضعت في اشرف موضع من بيت المقدس، وكان ينزل عليها الطعام من الجنة، ولم ترضع ثديا قط، وكان (زكريا) يجد عندها فاكهة الشتاء من الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء فيسألها: (أَنَّى لَكِ هَذَا[٢٦]؟). فتجيبه: (هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ). وبكفالة (زكريا) عليه السلام لتلك الطفلة المباركة تنتهي قصة

(امرأة عمران) بتسليمها مولودها الأنثوي لمن أراد الله أن يتولىَّ تربيتها والقيام بشأنها، لتبدأ قصة تلك الفتاة التي جاءت ولادتها عن طريق المعجزة، ووظيفتها عن طريق المعجزة، وتربيتها عن طريق المعجزة أيضا.

ثانيا ــ بلاغة الأسلوب الخبري في قصة (مريم) عليها السلام:

يمكن القول بأن الحديث عن (امرأة عمران) تمهيد لقصة ابنتها (مريم) عليها السلام التي واكبت نشأتها أكثر من حدث معجز، لأن هذه البنت المنذورة هي التي ستلد الغلام الموعود لعمران والذي يجعله الله رسولا لبني إسرائيل فيما بعد، كما يمكن القول بأن قصة (مريم) عليها السلام تبدأ مع لحظة تقديمها إلى القائمين بشئون بيت المقدس، وهم من صفوة الناس، ولذلك تنافسوا على كفالتها، لأن ذلك عمل صالح جدير بالمنافسة والتسابق إليه "فخفُّوا إليها سراعاً، وتنازعوا في كفالتها، كل يريد أن يكون المدبر لشئونها، والقائم على تربيتها، لأنها بنتُ إمامهم، وسليلة صاحب قربانهم[٢٧]". وشاءت إرادة الله أن يتكفلها (زكريا) عليه السلام زوج خالتها، أو زوج أختها ــ على اختلاف الروايات ــ "وكان أشدهم حدبا عليها، وأكثرهم رغبة في كفالتها زكريا، فقال لهم: أنا زوج خالتها فأعطوني إياها، وخصوني بالعناية بأمرها، فأنا أقربكم رحما إليها، وأوثقكم صلة بها.[٢٨]" وتدخلت إرادة الله في هذا التنازع، فأوحى إليهم بفكرة (الاقتراع) فاقترعوا وكانوا سبعة وعشرين، انطلقوا إلى نهر ألقوا فيه سهام الاقتراع فارتفع قلم (زكريا) فوق الماء، ورسبت أقلامهم، فخضعوا لنتيجة القرعة، وسلموها إلى (زكريا) فتكفلها، وصار وليها، والقائم على تربيتها، وكان كثير

التردد عليها والتفقد لشئونها، والاطمئنان على حالها. وقد ذكر القرآن الكريم عملية القرعة صراحة في خطابه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: " ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ[٢٩] ".

وعودة إلى الأساليب الخبرية في حديث القرآن عن (مريم) عليها السلام مع بداية قوله عز وجل: " فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ " تمت الإشارة إلى الفرق بين الفعل (تَقَبَّلَ) والفعل (قبلَ) وخلاصة القول في ذلك أن زيادة المبنى في الكلمة يعطي زيادة في المعنى، أضف إلى ذلك استعمال حرف (الباء) في قوله (بقبول حسن) ولم يقل (قبولا حسنا) والغرض البلاغي من هذا الاستعمال إفادة التوكيد والمبالغة في القبول الحسن، ثم عطف على هذا القول (وأنبتها نباتا حسنا) باستعمال الفعل الماضي لإفادة التحقق وتأكيد حصول التربية الحسنة عن طريق كفالتها من قبل (زكريا) عليه السلام على رغم أن ما يقتضيه المقام هو استعمال الفعل للمستقبل، أي: سينبتها نباتا حسنا، بعد أن يتكفل (زكريا) بتربيتها.

وقد عد البلاغيون ذلك من صور خروج الخبر عن مقتضى الظاهر وقالوا عن استعمال الفعل (فزع) بصيغة الماضي في قوله تعالى: "وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ففَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[٣٠]" إن في ذلك تأكيدا للثبوت ومبالغة في الحصول ودلالة على أن ذلك كائن لا محالة[٣١]، لأن استعمال (فزع) دون (يفزع) جاء لغرض لا يحققه الفعل بصيغته

المضارعة، وذلك الغرض البلاغي يكمن في "الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به[٣٢]". أما الأسلوب الخبري في قوله تعالى: " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا " فالجملة هنا بدأت بالفعل (كَفَّلَ) بتشديد الفاء، ليفيد تعدي الفعل إلى مفعولين هما: (مريم) عليها السلام الذي قام ضمير الغائب (الهاء) مقامها، و (زكريا)، ومعنى الجملة: كَفَّل الله زكريا مريم، أي: جعله كفيلها، فيكون (الفاعل) هو الله بينما مجيء الفعل (كَفَّلَ) بدون تشديد الفاء يكون (الفاعل) زكريا، والهدف من الخبر إظهار أن هذا التكليف هو تكليف إلهي لزكريا، وليس الأمر متجها إلى الكفالة التطوعية من قبل زكريا، ولعل قصة (الاقتراع) تدعم ذلك وتؤكده حين قضت إرادة الله بأن يرتفع قلم زكريا فوق الماء دون سائر الأقلام السبعة والعشرين الأخرى. أضف إلى ذلك ملائمة هذا الخبر مع الخبرين السابقين له، واللذين يشيران إلى تقبل الله لمريم بالقبول الحسن، وإنباتها نباتا حسنا، فصار بذلك شأن (مريم) كلُّه إلى الله سبحانه، ثم تأتي بقية الآية الكريمة بالخبر الذي تتجلى فيه عناية الله بـــ (مريم) إلى الدرجة التي يقف (زكريا) عندها حائرا متعجبا: "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا" ولا يخفى ــ هنا ــ أن استهلال الخبر بلفظ (كُلمَّا) بأنه يفيد الاستمرار والتجدد، فهو يجد عندها الرزق في كل مرة يدخل على محرابها للاطمئنان على حالها، ويفيد الخبر أن هذا الأمر يثير الدهشة لديه ويدعو على الاستغراب عن طريق سؤاله لها: " أَنَّى لَكِ هَذَا " أي: "من أين لك هذا الرزق الذي لا

يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك[٣٣]." وليس من شك في أن هذا الأمر من باب (المعجز)، بل ويضيف المفسرون إلى هذا المعجز حدثا معجزا آخر في إجابتها له، وهي صغيرة لا يسمح سنها بفهم السؤال ورد الجواب وعلى الرغم من ذلك فإنها تكلمت، ولا عجب، فقد تكلم بعدها ابنها (عيسى) عليه السلام، وهو في المهد صبيا، وتوجيه السؤال من قبل (زكريا) عليه السلام لها، وهي صغيرة، "إنما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما عَلِمَ بما شاهده أنها مؤيَّدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة[٣٤]". وقولها: (هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ) ذُكر في هذه الجملة الخبرية المسند إليه (المبتدأ) مع إمكانية الاستغناء عنه بقرينة السؤال (أنى لكِ هذا) فتُفهم الإجابة لو قيل: (من عند الله) دون ذكر (المسند إليه)، ولكن ذكره ــ هنا ــ يحقق غاية بلاغية عبّر عنها البلاغيون بقولهم: زيادة التقرير والإيضاح حتى يتمكن الحكم في ذهن السامع، ويمثلون لذلك بقوله تعالى: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً[٣٥]" "فقد كان من الممكن حذف المسند إليه، ويقال: (من أمر ربي)، لكن البيان القرآني العظيم أعاد ذكر (المسند إليه) في الإجابة تثبيتا لهذا الأمر في النفوس وإقرارا له وتوضيحا حتى لا يماري فيه أحد أو يجادل فيه المجادلون[٣٦]". ثم تنتهي الآية الكريمة بالخبر المؤكد بـــ (إنَّ) في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ"، وهو تذييل لما سبق من قولها: (هو من عند الله) وفيه إظهار لنعمة الله على من يشاء من خلقه وأن هذه النعمة، تتصف

بأنها لا حدَّ لها في الكثرة، كما أن الله يتفضل بها على من يشاء دون الحاجة إلى إلحاح في المسألة، ففي قوله تعالى: (بغير حساب) أي: بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق، وهذه النهاية لقصة (امرأة عمران) مع ابنتها، والوفاء بالنذر، مَهَّدَتْ لبداية قصة (زكريا) عليه السلام في هذه السورة عندما بدأت الآية التي تليها بقوله تعالى: " هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ" لأنه عليه الصلاة والسلام، ثبت له ما حصل لمريم من نزول الطعام خرقا للعادة من السماء بفضل الله سبحانه عليها فتاقت نفسه للحصول على ولد من امرأته العقيمة المسنة وحداه الرجاء بانخراق العادة في شان إنجابه الذرية الطيبة، وقد تحقق له ــ بفضل الله ــ ما أراد.

وقد تحدثت الآيات الأربع التي تلت قول (مريم) عليها السلام عن استجابة الله سبحانه لدعاء (زكريا)، ثم عاد الحديث عن (مريم) عليها السلام مع بداية قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ[٣٧]" وفي هذا الخبر عدد من النكات البلاغية أهمها ما يلي:

١- استعمال الملائكة بصيغة (الجمع) مع أن المراد بالملائكة (جبريل) عليه الصلاة والسلام ــ كما يذكر المفسرون ــ وفيه تعظيم له عليه السلام إذ تم اختياره لمخاطبة (مريم) عليها السلام نيابة عن سائر الملائكة، ويتضمن هذا التعظيم تعظيما لمريم عليها السلام أيضا، فقد ذكر أكثر المفسرين أن

الكلام كان شفاها كرامة لها، أو إرهاصا لنبوة (عيسى) عليه السلام[٣٨].

٢- استعمال (يا) النداء في مخاطبة (مريم) وهو حرف نداء خاص بمناداة البعيد، واستعمل ــ هنا ــ لمناداة القريب، والغرض البلاغي من هذا الاستعمال تعظيم شأن المخاطب وإعلاء قدره ومكانته، كما هو الحال مع مناداة الله عز وجل بياء النداء مع قربه من خلقه، ولا ينادى لفظ الجلالة (الله) بأداة نداء أخرى غير (الياء).

٣- في الأسلوب الخبري المؤكد في قوله تعالى: (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) ذكر (الاصطفاء) مرتين، وقد سبق ذكر اصطفاء مريم عليها السلام ضمن (آل عمران)، وهنا يفيد الاصطفاء كونه اصطفاء خاصا بمريم عليها السلام، وخصوصية (الاصطفاء) الأول في هذه الآية الكريمة، هو تقبل الله لها ــ سبحانه ــ من أمها بقبول حسن، ولم يُتَقبل قبلها (أنثى) لتكون سادنة في بيت المقدس، ويمكن أن يدخل في هذا (الاصطفاء) المخصوص لمريم عليها السلام دون غيرها الرزق الذي أنزل عليها في الجنة. أما (الاصطفاء) الثاني فهو اصطفاء على سائر نساء العالمين بأن وهب لها (عيسى) عليه السلام من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وجعله عليه الصلاة والسلام مع أمه آية للعالمين. وأما (التطهير) الذي فصل بين الاصطفاءين

المتغايرين فإنه يتقبل عددا من الدلالات، ومنها: التطهير عن الكفر والمعصية، والتطهير من الأفعال الذميمة، والتطهير من العادات القبيحة، والتطهير عن كل ما قاله اليهود عنها واتهموها به، وافتراءاتهم وأكاذيبهم وربما كان المقصود بالتطهير ــ وهو الأرجح ــ تطهيره تعالى لها عن مسيس الرجال، ويأتي ترجيح هذا الأمر بسبب ذكر (الاصطفاء) قبله، ولا يكون (الاصطفاء) إلا لمن كان بعيدا عن المعاصي والذنوب والعادات القبيحة أو الأفعال الذميمة، وقد يدخل ضمن هذا التطهير: طهرها عن الحيض الذي يحصل لسائر النساء، وقد "قالو: كانت مريم لا تحيض[٣٩]".

وخلاصة القول في ما تفيده هذه الآية الكريمة، هو أن الله سبحانه وتعالى قد خص (مريم) عليها السلام في هذا المعنى بكل أنواع اللطف والهداية والعصمة والفضل على سائر العالمين على الرغم من كونها امرأة لا رسولا. ولأن هذه النعم المتوالية، والمواهب الكبيرة، والعطايا الكثيرة توجب الشكر من العبد والاجتهاد في طاعة الواهب المنان، جاء قول الله سبحانه بعد ذلك: " يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ[٤٠]" وحيث أن هذه الآية الكريمة تتضمن مجموعة من الأساليب الإنشائية، أولها (النداء) ثم عدد من الأوامر من قبل الله تعالى، فإنها لا تدخل ضمن الأساليب الخبرية ــ مجال هذا البحث ــ لذا يتم الاكتفاء بالقول: أن الآية وإن كانت تتضمن هذه الإنشاءات الطلبية إلا أنها إخبار عن قيل الملائكة

لمريم ذلك القول المتضمن طلب الإخلاص في العبادة، والخشوع في الطاعة، والشكر له سبحانه وتعالى على ما أكرمها به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس، والتفضيل على نساء العالمين. وكل ذلك له شديد الصلة بما قبله من أخبار، بيَّن البحث من أسرارها البلاغية ما تهيأ له.

وبعد هذه الأخبار التي ذكرها الله سبحانه عن (امرأة عمران) وابنتها (مريم) وزوج أختها (زكريا) وابنه (يحيى) عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، وكلها أخبار خفيَّةٌ على القوم، لم يطلع عليها الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا قومه، ولم يعلم بها من أحبار اليهود ولا من الرهبان إلا القليل منهم، قال سبحانه مخاطبا رسوله الكريم: "ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ[٤١]" وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أربع جمل خبرية، أولها: قوله تعالى: (ذلك من أنباء الغيب)، ففي استعماله لاسم الإشارة (ذلك) المخصص للبعيد فائدتان:

الأولى: من مزايا هذا الاستعمال الاستغناء عن إعادة ما تم ذكره من قصص عديدة للأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وزكريا ويحيى وامرأة عمران ومريم وعيسى عليهم السلام وكل ما تم ذكره سابقاً.

الثانية: اسم الإشارة (ذلك) فيه دلالة على عظيم منزلة من ذكروا، وعلو مكانتهم، وتلك دلالة أفادها السياق، وفي قوله: (من

أنباء الغيب) إشارة إلى أن ما سبق من أخبار لا يمكن أن يكون الرسول عالما بها إلاَّ بالوحي، ولأنها خافية على غيره أيضا من الناس بتفاصيلها المذكورة سماها الله وحيا لوصولها إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق جبريل عليه السلام، وكانت هذه الأخبار بالغيبيات في القرآن الكريم من أعظم الدلالات على صحة نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، وأقوى الحجج لدحض مزاعم وأكاذيب الجاحدين المعاندين، وفي قوله تعالى: (نوحيه إليك) تأكيد على كون تلك الأخبار غيبية لا يتأتى لأحد العلم بها إلا عن طريق الوحي، أما قوله تعالى: (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) فتحمل في طياتها تهكما بأولئك الذين لم يصدقوا بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم فهم يعلمون بأنه لا يمكنه قراءة هذه الأخبار في الكتب لكونه أميا، ونشأ بين قوم أميين، ولم يسمع تلك الأخبار عن راوٍ عارف بها، فلم يبق بعد ذلك للعلم بها إلا عن واحد من طريقين، إما عن طريق الوحي، وفي ذلك دليل على نبوته، أو عن طريق كونه شاهد تلك الأحداث بنفسه وقد نفى القرآن تلك المشاهدة لاستحالتها، فكان ذلك النفي منطويا على التهكم بهم. ثم جاء بعد ذلك قوله سبحانه (وما كانت لديهم إذ يختصمون) وفي تخصيص هذا المشهد من سائر القصص والأنباء التي ذكرت فيما سبق، دليل على أهمية أمر كفالتها، وفي ذلك تعظيم لشانها، وإجلال لقدر زكريا عليه السلام ومكانته عند الله، كما يعكس ذلك رغبة السدنة لبيت المقدس في القيام بشأن تلك الفتاة التي قبلها الله من دون سائر الإناث لتكون خادمة في بيته ومن الخاصة في عبادته، وحرصهم على تولي أمرها

وكفاية مهامها، ولعل ذلك الاهتمام من قبلهم والاختصام فيما بينهم من أجل كفالتها حصل نتيجة واحد من ثلاثة: "إما لأن عمران كان رئيسا لهم فأرادوا مكافأته قياما ببعض ما يجب له من الحقوق، أو لأنهم وجدوا في بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم، أو لأنهم رأوا في ذلك القيام بواجب ديني إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة[٤٢]" وقد تكون هذه الأسباب الثلاثة مجتمعة هي الدافع لذلك التنافس أو الخصام كما عبر عنه القرآن الكريم من أجل كفالتها.

وقد مَهَّد هذا الاهتمام بشأن (مريم) عليها السلام للعودة إلى قصة (مريم) وابنها، فجاء قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[٤٣]} في هذه الآية الكريمة أسلوب خبري يمكن تجزئته إلى عدد من الأخبار تتصل ببعضها، أولها: قوله تعالى: { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ }، بعد أن أشار إلى التنافس من قبل سدنة بيت المقدس على كفالتها، تمهيداً لبيان عظيم شأنها، أراد سبحانه في هذه الآية الكريمة أن يبين كيفية ولادتها لعيسى (ع) كما بين حالها في أول أمرها، ولعل هذه العبارة بدل من القول السابق في قوله قبل آيات { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ } ولتأكيد هذا الاصطفاء وبيان أمر ذلك التطهير عن مسيس الرجال لها، جاء بهذه البشرى التي تخصها دون غيرها من نساء العالمين، { إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ} أي بكلمة (كُنْ) فكان عليه السلام، و (مِنْ) ــ هنا ــ في قوله: (منه) ليست للتبعيض،

وإنما هي لابتداء الغاية "لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة، صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر، فكان كونه كلمة (الله) مبدأ لظهوره، ولحدوثه أكمل[٤٤]". وهذه البشرى التي بلغها رئيس الملائكة (جبريل) إليها مباشرة من الله دليل واضح على مكانة تلك البشرى وعظمتها، ثم قال: { اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } لأن المسمى ذكر والمسيح معناه (المبارك)، وكان الملك عندهم يلقبونه بـــ (المسيح)، "وأطلق عليه المسيح وهو لقب الملك عندهم، لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى المُلك بالدهن المقدس، ويعبّرون عن توليه المُلك بالمسح، وعن المَلِكِ بالمسيح[٤٥]".

وعيسى: أسمه، وابن مريم، إشارة إلى أنه ينسب إليها إذ ليس له أب، وإن كان الخطاب موجها لها، وكأنه قيل، إن الذي يعرف به ويميزه عمن سواه مجموعة هذه الثلاثة (اللقب والاسم والصفة)، ولا شيء منها ينطبق على غيره، وكلها مخصصة له دون غيره من الأنبياء عليهم السلام وفي ختام الآية يذكر لهذا المبشَّر به عددا من الصفات، كأنه قال: هذا المبشر موصوفا بكذا وكذا، وذكر صفة الوجاهة من جهتين: في الدنيا، النبوة وشأنه العظيم بما اتصف به من صفات لم يتصف بها نبي غيره. وفي الآخرة: الشفاعة وعلو درجته في الجنة، وارتفاع منزلته التي يراها الناس فيها فيؤمنون حينئذ بما له من القرب والزلفى عند ربه الذي صرح بذلك في كتابه حين قال جل شأنه: { وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } وقد قربه الله إليه في الدنيا

برفعه إلى السماء، وجعله في صحبة الملائكة، وتتعدد دلالات هذا الخبر في هذه الآية الكريمة، ومن أهمها ما يلي:

١- ولادة (عيسى) عليه السلام أمر عظيم، ولذا أنبأ الله رسوله بقصة ولادته في أكثر من موطن في كتابه، لأنها من أهم الخوارق والمعاجز.

٢- من دلالات اصطفاء (مريم) عليها السلام وتطهيرها اختيار الله لها لتكون أما لهذا النبي العظيم الذي ذكر الله سبحانه عددا من صفاته التي تميزه عن غيره من سائر البشر.

٣- انتساب (عيسى) لـــ (مريم) على لسان الذكر الحكيم { اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } فيه إظهار لمكانة (عيسى) عليه السلام ومكانة أمه العظيمتين، وبيان لشأنهما الجليل عند الله سبحانه.

واستمرارا في ذكر الصفات التي يتميز بها هذا المولود المبارك جاءت الآية التالية: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ[٤٦]} وفي هذا الخبر مجموعة من الغايات البلاغية أهمها:

١- أثبات وقوع فعل الكلام عن طريق استعمال الفعل المضارع (يُكلّم)، ولأن ذلك الحدث حدث غير طبيعي، فهو يدخل ضمن وجاهة هذا المولود في الدنيا.

٢- قوله تعالى: { فِي الْمَهْدِ } فيه تأكيد على أن ذلك التكلم كان عن طريق المعجز الخارق للعادة، لأن المرحلة العُمْرِيَّة التي يكون فيه الطفل ما يزال في المهد، لا يمكن أن يكون فيها قادراً على الكلام، لأن أجهزة النطق عنده لا تكون قادرة على فعل ذلك. ولكن المقام في حاجة ماسة على هذا المعجز لإثبات براءة (مريم) عليها السلام من التهمة التي رموها بها.

٣- في قوله تعالى: { وَكَهْلاً } رسالة من الله سبحانه لـــ (مريم) يطمئنها فيها على أن هذا المولود سيتولى الله حفظه إلى أن يصبح كهلاً، فيكلم الناس ــ وقتها ــ بالوحي والنبوة. والكهل في اللغة: "من وخطه الشيب ورأيت له بجالة، أو من جاوز الثلاثين أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين[٤٧]" ووخطة: يعني: أسرع إليه الشيب، والبجالة: علامة الوقار وكبر السن[٤٨].

ويفيد قوله تعالى: { وَمِنَ الصَّالِحِينَ } مواظبة (عيسى) عليه السلام على النهج الأصلح، والطريق الأكمل، ويدخل ضمن الصلاح كل الأفعال الحسنة في الدنيا وكل خبر حث عليه الدين سواء كان من أفعال الجوارح، أو أفعال القلوب، والصلاح عام لكل تلك التفاصيل التي تم ذكرها فيما سبق من كونه عليه الصلاة والسلام: كلمة الله، ووجيها في الدنيا والآخرة، وكونه من المقربين عند الله...إلخ،

ولذلك ناسب أن يختم الله سبحانه أوصاف (عيسى) عليه السلام بهذا الوصف للتأكيد على علو شأنه وارتفاع درجته عند الله سبحانه.

وبعد أن تيقنت (مريم) عليها السلام من حصولها على (ولد) عن طريق تلك البُشْرى التي نقلها إليها (جبريل) عليه السلام ومعلوم أن ذلك لم يحصل لامرأة قط، فما سبق أن أنجبت امرأة مولودا من غير بعل، لذا، توجهت (مريم) عليها السلام إلى ربها وقالت ما نص به القرآن الكريم: { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ[٤٩]}. إذاً، فالخطاب في هذه الآية الكريمة موجَّها من (مريم) عليها السلام إلى الله مباشرة بأسلوبي الإنشاء الطلبي المتمثلين في النداء (رَبّ) والاستفهام (أنىَّ) لأن غرابة الأمر تستعدي هذا التعجب والذهول (أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟) وهي تنتظر الإجابة على ذلك الاستفهام من الله سبحانه القاضي بهذا الأمر. "فقال الله لها: { كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء } يعني: هكذا يخلق الله منك ولدا لكِ من غير أن يمسكِ بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه يخلق ما يشاء، ويصنع ما يريد، فيعطي الولد من يشاء من غير فحل ومن فحل، ويحرم ذلك من يشاء من النساء وإن كانت ذات بعل، لأنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئا ما أراد، فيقول له كن فيكون ما شاء مما يشاء، وكيف يشاء[٥٠]".

وفي هذه الآية الكريمة جملة من النكت البلاغية، أولها تقديم الجار والمجرور على اسم (كان) في قوله تعالى على لسان (مريم)

عليها السلام { أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ } ففيه دلالة على أن الاستغراب والتعجب إنما وقعا على نسبة الولد إليها، وليس على الولد نفسه لأن إنجاب الأولاد من النساء معهود، إلا في مثل حالتها لكونها من غير بعل، وفي الجملة الخبرية المنفية التي جاءت بعد هذا الإنشاء، وهو من تمام كلامها: {لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } استعمال الفعل المضارع المنفي، والفعل يفيد الحدوث، ففي الآية نفي لهذا الحدث، ونكتة بلاغية أخرى في هذا الخبر المنفي، وهو استعمال الفعل (مَسَّ) بمعنى اللمس، فالمسُّ في اللغة، تقول: مسَسْتُه مَسًّا، أي: "أفضيتُ إليه بيدي من غير حائل[٥١]" ونفي اللمس باليد، يوحي باستحالة النكاح الذي يتطلبه الإنجاب في الحالات الطبيعية، فهي عندما نفت مس البشر لجسدها، كان ذلك النفي أبلغ من نفي معاشرة الرجال لها، أضف إلى ذلك ما أفاده تقديم المفعول به على الفاعل في قولها {لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } حيث الاهتمام منصبٌّ على نفي وقوع المسّ بها، "وترى البليغ يقدم بعض المعمولات، لأن ذلك البعض ذِكْرُه أهم والعناية به أولى" فيقدم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض وقوع الفعل بالمفعول لا صدوره من الفاعل[٥٢]." وهذا ما أفاده تقديم المفعول به على الفاعل إذ الغرض متوجه إلى نفي تعرضها للمس، لا إلى الذي مسها.

وفي قوله تعالى: { كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء } خبر بدأ بقوله تعالى: (كذلك) أي: مثل ذلك، واستعمل اسم الإشارة الخاص بالبعيد لمناسبته بعد أمر الإنجاب من غير بعل، كما استعمل الفعل (يخلق)

لأن الخلق بمعنى الإبداع والاختراع، وهو هنا يتلاءم مع شأن ولادة (عيسى) عليه السلام من غير أب، وقدم لفظ الجلالة على الفعل يخلق، فصارت الجملة اسمية تفيد الثبوت والدوام، وأفادت التوكيد في عودة الضمير الدال على الفاعل في قوله (يخلق) الراجع إلى الله سبحانه، وتقديم لفظ الجلالة يحمل معنى التعظيم والإجلال، وفي قوله تعالى { إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} خبر تتجلى بلاغته من عدة وجوه: الأول: استعمال الفعل (قضى) في صيغة (الماضي) التي أفادت البتَّ في الحكم، وأن الله سبحانه قد أحكم قضاءه في ذلك الأمر، فهو حاصل لا محالة، ويفيد استعمال لفظة (الأمر) نكرة ــ لا معرفةــ (إذا قضَى أمْرًا) يفيد العموم، أي عامة الأمور، لأن ذلك ينطبق على كل ما بتَّ الله في حكمه من الشئون والأفعال دون حصر أو تقييد، أضف إلى ذلك حذف لفظ الجلالة (الفاعل) نظراً للعلم به فلا أحد يبتُّ في الحكم على أمر من الأمور غير الله سبحانه، "وأصل القضاء الإحكام، أُطلق على الإرادة الإلهية القطعية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه البتَّة[٥٣]".

وورود (إنما) ــ أداة القصر ــ في النص تفيد سرعة نفوذ مشيئته، وحصول ما يريده بلا إبطاء من قبل المأمور المطيع الممنوح من قبله سبحانه القدرة على العمل، فيفعل ما يُطلب منه على الفور، وفيه إشعار بكمال القدرة له تبارك وتعالى، وفي كلمة (كُنْ) التي تعبر عن (أمر التكوين) الذي يقابله (أمر التكليف) الذي يعرف عن طريق وحي الله لأنبيائه ورسله، فقوله: (كُنْ)، "المراد من

هذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء، وأنه تعالى يخلق الأشياء لا بفكرة ومعاناة وتجربة[٥٤]". واستعمال (إنما) في الآية الكريمة، "وطريق (إنما) يعبر به في المعاني الواضحة التي يعلمها المخاطب، وليست موضع إنكار أو جحود، أو فيما ينزل تلك المنزلة لاعتبار بلاغي مناسب[٥٥]." والمخاطبة في الآية الكريمة (مريم) عليها السلام، ومعلوم أنها لا تجهل قدرة الله وعظيم شأنه، ونفاذ قضائه، كما أنها لا تنكر أمرا أراده الله بمشيئته، ولا تجحد فضلاً تكرم به عليها، ولهذا كله جاءت أداة القصر (إنما) ملائمة للمخاطب الذي هذا هو حاله، كما أفاد (أسلوب القصر) أن سرعة تنفيذ إرادته متوقف على إشارة منه سبحانه لذلك المأمور المطيع بلا تريث أو إبطاء.

وتنتهي قصة (مريم) عليها السلام في سورة (آل عمران) بقوله تعالى: { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ[٥٦]} وهذا الخبر الموجه لـــ (مريم) عليها السلام له عدد من الدلالات البلاغية يمكن إيضاحها فيما يلي:

١- بدأ الخبر بالفعل (يُعَلَّم) والجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث وفي ذلك إشارة واضحة إلى تكفُّل الله سبحانه وتعالى بتعليم هذا المولود المبارك أمورا تميزه عن غيره من الناس، لم يكن قد سبق أن أحاط بها، وإنما هي جديدة بالنسبة إليه.

٢- فاعل (يُعلّم) محذوف للعلم به، وناب ذكر الضمير (الهاء) في قوله (يعلمه) عن ذكر الاسم أو التصريح به لأنَّ في ذلك

إشارة على أن الحاجة لا تستدعي ذكر (عيسى) عليه السلام أو لفظ (الولد)، فالقرائن كافية للدلالة عليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يفيد أن المخاطب لا يشغله شاغل غير هذا الأمر الذي يدور حوله الحديث في عدد من الآيات، فهو في تعجل إلى معرفة ما سيتميز به، وذكر ضمير الغائب نيابة عن لفظه يؤدي الغرض ويُسرّع في الوصول إلى ما هو مطلوب، أما ورود ما تكفّل الله بتعليمه لهذا المولود على الوجه المذكور مرتبة على النحو التالي: (الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) فإن هذا الترتيب هو الملائم للمقام تمام الملائمة، لأن في ذلك تدرجا لمراتب العلم، إذ تبدأ بمعرفة الخط والكتابة، ثم معرفة العلوم وتهذيب الأخلاق، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به وذلك ما يسمى بـــ (الحكمة) التي أعقبت في الترتيب، تعلُّم الكتابة، ولأن (التوراة) كتاب إلهي يتطلب معرفة أسراره العظيمة تعلم العلوم الكثيرة ليتمكن من الخوض في البحث عن أسرار تلك الكتب الإلهية، وجاء في نهاية الترتيب ذكر (الإنجيل) لأن الإحاطة بأسرار الكتاب الذي أنزله سبحانه على من قبله من الأنبياء من شأنه ارتفاع درجة العلم لمن تعلَّم ذلك، فإذا أنزل الله سبحانه وتعالى عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره، فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم والفهم، والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، وإدراك الحكم السفلية والعلوية[٥٧].

واستكمالا لدراسة ما جاء من أساليب خبرية في قصة (مريم) عليها السلام ــ قبل تناول قصة (عيسى) عليه السلام ــ سيبدأ الحديث عما ورد عن هذه القصة بتفصيل أكثر في سورة (مريم) عليها السلام ابتداءً من قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا[٥٨]}. وبهذه الآية الكريمة من سورة (مريم) يبدأ الحديث عن قصتها عليها السلام، وقد بدأت السورة بالحديث عن (زكريا) عليه السلام، ثم تحدثت عن قصة ميلاد (يحيى) عليه السلام، حتى جاء الحديث مع بداية هذه الآية عن قصة (مريم) عليها السلام وابنها (عيسى) صلوات الله وسلامه عليهم، "وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل! وهي أعجب وأغرب[٥٩]".

وتبدأ الآية الكريمة بالخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله عن طريق الإنشاء الطلبي المتمثل في أسلوب الأمر (واذكر) أمر للنبي محمد عليه الصلاة والسلام بذكر قصة (مريم) بعد قصة (زكريا) وابنه (يحيى) لما بينهم من تقارب في الموضوع، والملاحَظُ في هذا الخطاب أن الأسلوب القرآني جاء بحذف المضاف وذكر المضاف إليه (مريم) لأن المقصود: واذكر نبأ مريم لأن الذكر لا يتعين بالأعيان أو الأشخاص، وإنما بشئونهم وأخبارهم، ولعل حذف المضاف ــ هنا ــ وإحلال المضاف إليه مكانه، فيه إشعار بأهمية المذكور مما استدعى التوجه إليه مباشرة، وهذا الجانب البلاغي مطرد في الأسلوب القرآني

عندما يكون الحديث عن أخبار الأنبياء والرسل عليهم السلام. وفي قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} أي وقت أن تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة، وانفردت بنفسها في مكان من ناحية الشرق، وفي إسناد (الانتباذ) لها عليها السلام، يشير إلى وجود سبب لذلك الابتعاد والتنحي، وعلى الرغم من عدم ذكر السبب في القرآن الكريم، إلا أن المفسرين احتملوا له أكثر من وجه، ومن أظهر هذه الوجوه، أنها رأت الحيض فابتعدت عن مكان العبادة حتى تطهر، أو أنها قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها ولعل الثاني مدعوم بقوله تعالى في الآية التي تلي هذه الآية {فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا}، والمكان يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها[٦٠]. ولا يمنع أن يكون سبب انعزالها من أهلها، وانفرادها عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس، الخلوة من أجل العبادة، ويرجح هذا الاحتمال كون الابتعاد عن الأهل لا يكون إلاَّ لسبب عظيم، وغاية تسمو على الأهل والأقارب ولاشيء يمكن أن يترك الأهل من أجله سوى العبادة، ولعل هذا يتناسب مع مجيء (جبريل) عليه السلام إليها ليعلمها بما يريد الله لها من الكرامة بأن يهب لها ولدا من غير أب يجعله آية للناس، وحصول ذلك أثناء انقطاعها للعبادة أولى من حصوله وقت انقطاعها عن العبادة بسبب الحيض "لقد كرست (مريم) عليها السلام حياتها للعبادة والتعامل مع الله، وكان آخر سلسلة من نشاطها العبادي ــ بالنسبة إلى هذه الأقصوصة ــ انفرادها عن الأهل واتخاذها مكانا منعزلاً عن

الآدميين، حيث انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. وكان من الطبيعي ــ من خلال تعامل الله مع صفوة الآدميين ــ أن يهبهم عطاءً غير محتسب، وأن يكون هذا العطاء مقترنا بالتعامل غير العادي، بحيث يظل جبرائيل واحدا من أطراف التعامل، وعيسى (ع) واحدا من معطيات التعامل المذكور[٦١]." وتجدر الإشارة هنا إلى أن قصة (مريم) عليها السلام في هذه السورة بدأت مع (مريم) وهي في سن قابل للإنجاب، بينما تناولت سورة (آل عمران) قصة ولادة (مريم) وكفالة (زكريا) لها بعد أن نذرتها أمها لخدمة بيت المقدس، وكأن الأخبار في هذه السورة تطوير وتفصيل للأحداث والأخبار التي وردت في (آل عمران) التي يمكن وصفها هناك بمقدمة لهذه الأحداث، وفي سورة (مريم) ــ هنا ــ تأتي التفاصيل، ابتداء بتنحيها وابتعادها عن الأهل، والاحتجاب عن أنظارهم، "وها هي ذي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها، ولكن ها هي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة، إنه رجل مكتمل سوي، {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [٦٢]} وهاهي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة، يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل ... فالتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان[٦٣]".

وفي هذا الجزء من الآية الكريمة يأتي الأسلوب القرآني بـــ (نا) الفاعلين في قوله تعالى: (فأرسلنا) وفي كلمة: (روحنا) ويفيد هذا الاستعمال دلالة التعظيم والتفخيم، ففي الكلمة الأولى تعظيم للمرسل

وهو الله سبحانه، وفي الثانية تعظيم لله ولجبرائيل الذي حمل من بين الملائكة اسم (روح الله)، وقدم الجار والمجرور في قوله: (إليها) على المفعول به للدلالة على أهمية المرسل إليه وهي (مريم) عليها السلام، وقدْرهَا العظيم عند الله سبحانه، وفي قوله تعالى (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) أي: في صورة رجل آدمي معتدل الخلق في أحسن صورة، وفي ذلك عناية من الله بمريم عليها السلام، حتى لا تنفر من جبريل وتخشى من مفاوضته والحوار معه ــ لو أتاها في صورته الملكيةــ، وكانت النتيجة أنها تقبَّلت منه ما ألقى إليها من كلمات، وأنِسَت لكلامه، وأفاد ذكر الصفة (سويا) للرجل، إزالة التوهم من ذهن متلقي النص حتى لا يفهم أن ذلك الرجل الذي يتمثل لها جاءها في صورة مخيفة بقرينة استعاذتها بالرحمن منه، لأنه دخل عليها خلوتها، وتفاجأت، "فحاولت الهروب، واستعاذت بالله إذ ظنته معتديا أثيما، وفاجرا زنيما، وهي التقية المؤمنة، العفيفة الطاهرة، ولكنه أعاد إليها طمأنينتها، وسكَّنَ روعها، ثم أخذ يتحدث إليها قائلاً: { قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا[٦٤]} [٦٥]". وذلك بعد أن أحسَّ منها الخوف والفزع عندما قالت قولها ذاك: {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا[٦٦]}.

وجاء هذا الأسلوب الخبري متصدرا بأداة التوكيد (إنّ) وفي ذلك إيحاء بأنها واثقة من عاقبة اللجوء إلى الرحمن واختارت اسم (الرحمن) من أسماء الله من (الرَّحمة) التي تعني في اللغة: الرّقة،

والتعطُّف، وكذلك المغفرة[٦٧]. فهي تلجأ إلى عطفه ورحمته بها من هذا الذي دخل عليها خلوتها، وفي قولها: (إن كنت تقيا)، أي إن كنت صاحب تقوى تتقي محارم الله، وتجتنب معاصيه، فمن صفة المتقي تجنب المعاصي، وفي الآية إشارة إلى أن الاستعاذة تؤثر في التقي، وعندها تيقن جبريل من خوفها، "فقال الملك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لستُ ممن تظنين، ولا يقع مني ما تتوهمين من الشر، ولكني رسول ربك، بعثني إليك، لأهب لكِ غلاما طاهرا مبرأ من العيوب، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قِبَل أنها جرت على يده بأن نفخ في جيبها بأمر الله[٦٨]."

ومن الدلالات البلاغية التي تحملها الآية الكريمة ما يلي:

١- استعمال أسلوب (القصر) بـــ (إنما)، وقد قصر فيها الموصوف على الصفة، والقصر ــ بصورة عامة ــ يفيد تخصيص شيء بشيء، والجملة الدالة على القصر، تفيد الإثبات من جهة وتفيد النفي من جهة أخرى، ففي قول جبريل: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا) حصر جبريل مهمته في كونه رسولا من الله، أي: إنما أنا رسول من ربك لاكما تظنين وتتوهمين بأنني ممن ينوي الاعتداء عليك، فكأنه أثبت مهمته، ونفى عن نفسه ما يدور في خلدها اتجاهه من وساوس.

٢- إضافة الرب إلى المخاطب (رسول ربكِ) ولم يقل: رسول ربي، لإشعارها بأنني قد أرسلت من قبل من تتفانين في عبادته، وفضلتِ العزلة عن الأهل من أجله (ربّكِ) المسئول المطلق عنْكِ، والعارف بصلاحك وعفتك وما تستحقينه من جزاء وخير كبير عنده.

٣- استعمال لام (التعليل) وهو يتلاءم مع تلك المفاجأة الغريبة المخيفة، والمهمة التي كُلّف بها هذا الرسول، فقال: (لأهب)، أي: إن مهمتي التي استدعت مجيئي إليكِ في هذا الوقت ودون سابق إشعار هي القيام بهذه المهمة طاعة لأمر ربّكِ.

٤- مجيء الغلام نكرة يلائم السياق في كون المخاطب جاهلا بالأمر، وبعد ذكر كلمة (غلام) بالنكرة أراد أن يبين أهم خصائص هذا المجهول، وهي (الزكاة) أي: الطهارة، وكأنه قال: لأهب لك غلاما، وأي غلام ستحصلين عليه، إنه يتصف بالطُّهْر والنقاء والبعد عن الدنس وذلك وصف ملائم للطريقة التي سيأتي بها تمام الملائمة، إذ المعهود، أن ذلك لا يكون متحققا لفتاة عذراء غير متزوجة إلا عن طريق عمل من أعمال الشيطان الدنيئة، البعيدة كل البعد عن صفة الطهر والعفاف، ولذلك كله، أكدت السيدة العذراء (مريم) عليها السلام في ردها على قول جبريل: (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) ينفي البغي عنها الذي يمكن عن طريقه تحصل على غلام إن لم يمسسها بشر عن طريق الزواج، وعلى هذا الأساس جاءت الآية الكريمة: { قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} . على أسلوب الإنشاء الذي بدأ بالاستفهام عن طريق الأداة (أنَّى)، والاستفهام ــ كما هو معلوم ــ "تركيب يُطلبُ به العلم بحكم كان مجهولاً، أو في عداد المجهول عند السائل[٦٩]". ومن معاني (أنَّى)، تكون بمعنى (كيف) ــ كما في هذه ــ أي كيف يكون لي غلام؟ وفائدتها هنا: الاستنكار، والاستغراب، لأن ما أنبأها به جبريل يدعو إلى ذلك. ويأتي هذا الاستغراب والاستنكار من وجهين:

الأول ــ أنها عذراء لم يمسسها بشر عن طريق الزواج.

الثاني ــ أنها لم تكن ممن أطاع الشيطان فمارس البغاء الذي يمكن أن يفضي إلى تلك النتيجة، وهي الحصول على غلام. مع ملاحظة أن استعمال (المس) أبلغ من استعمال (لم أتزوج بشرا). وهناك في الآية الكريمة وجه ثالث من البلاغة القرآنية تكمن في استعمال الفعل (يمس) بصيغة المضارع الدال على الحدوث، وقد جاء منفيا في الآية، والفعل (لم أكُ بغيا)، إذ جاء الفعل (كان) في صيغة المضارع أيضا، ولكنه محذوف (النون) في آخره فصار نقصانه من وجهين: فهو فعل (ناقص) من الناحية النحوية، وناقص أيضاً من الناحية الصرفية، والحذف يدل على نقص من شيء وهو فعل منفي، وذلك يلائم نفي النقص عنها، إذ لا ينقصها العفاف ولا الإيمان حتى تكون بغيا. وهذه الأسرار البلاغية التي تحملها هذه الآية الكريمة التي وردت على لسان (مريم) عليها السلام، إنما تشير إلى موقف

المؤمن الحازم أمام ما قد يتعرض له من إغواء الشياطين ــ لا سمح الله ــ .

ثم تأتي الآية بعدها لتؤكد لها أن ذلك الأمر قد تم البَتُّ في قضائه من قبل الله سبحانه: {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا[٧٠]}، وقد مر بنا ــ آنفا ــ تأكيد هذا الأمر بصورة أخرى في سورة (آل عمران) في سياق هذا المعنى من قول جبريل عليه السلام لـــ (مريم) ــ وقد تمَّ تناوله هناك ــ وهو قوله تعالى {قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ[٧١]} ، وبالرجوع إلى الآية الكريمة في سورة (مريم)، يمكن القول في وجوهها البلاغية ما يلي:

١-في قوله تعالى: (قال كذلك) جاءت فيه الإجابة سريعة، فقد حذف الفاعل (جبريل) لأنه معلوم من السياق، وجاءت كلمة (كذَلِكِ) اختصارا لكل ما أثار استغراب (مريم)، وكأنه يقول: نعم، إن الله سيوجد منك غلاما، وإن لم تكوني ذات بعل، ولم تقترفي فاحشة، (قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) وجاء ــ هنا ــ بذكر الفاعل، وذكره له أهمية كبيرة في هذا المقام لأن كلمة الفصل عندما تأتي من الله سبحانه (قَالَ رَبُّكِ) يعني أن الأمر قد قضاه الله في سابق علمه، ومضى به حكمه، فلا يُغَيَّر ولا يُبَدَّل، ولا يخفى ما لإضافة الرب إلى (مريم) ــ المخاطبة بهذا الكلام ــ لا يخفى ما له من

فائدة جليلة بالنسبة لـــ (مريم) إذ يعني: أن الحكم الصادر بشأن ولادتك هو من عند ولي أمرك والمتصرف بشأنك، وكذلك استعمال الضمير المنفصل (هو) في قوله: (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)، إذ اختصر باستعماله كل ما يدور في ذهن (مريم) من غرابة في الأمر، وتَعَجُّبِ من الحدث، (مولود سيأتي بواسطة عذراء عفيفة غير متزوجة)، كما يحمل هذا الضمير المختصر لذلك الأمر كله، ــ مع أنه لا يتضمن أكثر من حرفين ــ دلالة عجيبة إذ جاء خفيفا في الكلام كخفة حصوله من الرب على رغم عظمته وكبر شأنه عند العباد، ويتضمن هذا الأسلوب الخبري (هو علي هين) نكتة بلاغية أخرى، تكمن في تقديم الجار والمجرور على الخبر (هين)، فقوله (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) يفيد التخصيص، أي علي هين لا على غيري ولو قال: هين علي، لما أفاد التخصيص، لأن قولك: هذا عليَّ صعبُ، يُفهم من كلامك، أنك لا تقوى على القيام بذلك الشيء إما لمرض، أو لكبر في السن، أو لعجز بسبب ما، ولكن ذلك الأمر قد يكون سهلاً على الآخرين، فولادة عيسى عليه السلام من غير أب، هو أمر على الله هين لأنه على كل شيء قدير، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده. كما لا يحتاج إلى وسائط أو أسباب، ووصف ذلك الأمر العظيم بالنسبة له جل جلاله بالهيّن، أي: الليّن المطاوع السهل، ففي معاجم اللغة: "هان الشيء (هونا) من باب: قال، لان وسهُل، فهو: (هَيّن)[٧٢]."، وفي قوله تعالى { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاس وَرَحْمَةً مِّنَّا} في بيان العلة والحكمة الإلهية من إيجاد هذا الغلام من غير أب ليكون برهانا

للقوم يستدلون به على قدرة الله سبحانه وكمالها، وقد ناسب استعمال (نون) العظمة في قوله (لنجعله) بيان تلك القدرة العظيمة، والخلق العجيب من الخالق القادر البارئ المصور الذي لم يكن له كفؤا أحد، وقوله: (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً)، أي: لنجعله علامة على قدرتنا، وإمارة على وحدانيتنا، لأن (الآية) في اللغة، من معانيها: العلامة والإمارة[٧٣]. و "تطلق (الآية) في اللغة على عدة معان، منها: الدليل والبرهان[٧٤]".

وعلى هذا المعنى، يكون المقصود من قوله تعالى: (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً) أي دليلا لهم على قدرتنا العجيبة، وبرهانا على الوحدانية، ويُفهم من قوله (للناس): كل الناس من مؤمن وكافر، ومعترف وجاحد، ومصدق ومكذب. أما قوله: (وَرَحْمَةً مِّنَّا) فقد أفاد إظهار بركة هذا المولود، فهو إلى كونه معجزة غريبة في طريقة ولادته سيكون رحمة للناس وسببا في هدايتهم ورشادهم، إذ أن الله سبحانه أراد له أن يكون كذلك، مع ملاحظة (نا) المتكلم صاحب العظمة والجلال في قوله: (منا)، ولم يقل (مني) لمناسبة هذا الإشعار بالعظمة مع ذلك الحدث العظيم الخارق للعادة، المتمثل في عجيب تلك الولادة.

وتأتي نهاية الآيـــــــة الكريمة بقوله تعالى: { وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} ويستغني الأسلوب الخبري في هذا الجزء من الآية عن اسم (كان) لدلالة السياق عليه من جهة، والتأكيد على حصوله حقيقة من جهة أخرى، ثم ذكر خبر (كان) ووصفه باسم المفعول (مقضيا)

إشارة إلى أن الأمر قد انتهى الحكم فيه من قِبل الخالق، فقد تعلق به قضاؤه الأزلي، وسطره في اللَّوْح، لتضمنه حكما بالغة.

وقد انتهى الحوار بهذه الآية الكريمة بين (جبريل) عليه السلام ــ الذي تمثل لها بشرا سويا ــ ومريم العذراء التي فاجأها ذلك الرجل في خلوتها يريد أن يهب لها غلاما، ثم تنتقل الآيات الكريمة التالية إلى عرض مشهد جديد، وموقف آخر هو أشد وقعا على نفس تلك العذراء، وقد بيّنت تلك الآيات حالتها عند حملها، وأثناء ولادتها، وكيف استقبلها قومها وهي تحمل ذلك الولد بين ذراعيها، وتبدأ هذه الآيات الكريمة، بقوله تعالى: {فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا[٧٥]}ويذهب بعض المفسرين إلى تقدير جملة محذوفة بين الآيتين، تشير على نفخ الروح في (عيسى) عليه السلام استناداً إلى الآية الكريمة التي ذكرت ذلك في قوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ[٧٦]} ومن باب تفسير القرآن بالقرآن جاء تقدير تلك الجملة المحذوفة بين الآيتين "إذا عرفت هذا، ظهر أن في الكلام حذفا وهو: وكان أمراً مقضيًّا، فنفخ فيها، فحملته...[٧٧]" وعلى أية حال فإن افتقاد هذه الجملة المحذوفة بين كلام (جبريل) عليه السلام، وحدوث الحمل لمريم عليها السلام ــ إذا صح كلام المفسرين ــ يتناسب تماما مع افتقاد الأب لهذا الحمل، ومعلوم بأن الأب يشكل طرفا في حدوث ذلك الحمل لو جاء بصورته الطبيعية، كما أن تلك الجملة المفقودة تشكل

جزءا من المعنى الذي يتضمنه الكلام لو جاء الكلام على (المساواة) لا (الإيجاز)، وتنطوي الآية الكريمة على نكتة بلاغية أخرى تفيد سرعة تحقيق الإرادة الإلهية التي قضت بذلك الحمل، أضف على ذلك أن استعمال الضمير (الهاء) في قوله: (فحملته) العائد على (الغلام) أبلغ من استعمال لفظ (الغلام)، أو (الولد)، لأن استعمال الضمير ــ هنا ــ يعني ذلك الذي حدث من أجله الحوار الساخن بين المَلَكِ الذي أرسله الله و (مريم) الفتاة العذراء التي هالها الموقف، وأفزعها نبأ هبتها ذلك الغلام، بينما التصريح بذلك (الغلام) لا يؤدي هذا المعنى، وفي إسناد الحمل لـــ (مريم) عليها السلام، وكأنها هي (الفاعل) إشارة إلى استسلامها لقضاء الله، وتنفيذها لإرادته ورضاها بالقدر الذي حكم به الله سبحانه لها، والظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، وإن كانت (الفاء) في قوله: (فحملته) تفيد التعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، ثم جاءت أيضا (فاء) التعقيب في قوله تعالى: (فَانتَبَذَتْ) أي: تنحت، وابتعدت (به) أي بما تحمله في بطنها، وأفاد مجيء (به) أن ذلك الابتعاد والتنحي، إنما جاء بسببه، لأنها لا تستطيع أن تقيم بين أهلها وقومها، وهي على ذلك الحال ــ عذراء حامل من غير زوج ــ وفي قوله تعالى: (مَكَانًا قَصِيًّا) "أي: إلى مكان بعيد عن المكان الذي يسكنه أهلها. يقال: قصى فلان عن فلان قصْوا و قُصُوّاً، إذا بَعْد عنه، ويُقال: فلان بمكان قصِيّ، أي: بعيد. وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصي، كان (بيت لحم) بفلسطين. قال ابن عباس: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فرارا من قوها أن يعيروها بولادتها من غير زوج[٧٨]." وفي وصف (القصي) للمكان

إشعار بالحالة النفسية التي كانت عليها، فهي تعلم أن من كان في مثل حالها، ستلوك ألسنة الناس الحديث في عرضها، ولن تستطيع دفع تُهمهم عنها، إنهم سيقولون: "إنها أودت بكرامة أهلها، ووسمت أسرتها بما يثلم شرفها، وينزلها من عليائها، ويلصق بالرغام أنفها، إن ذلك لعظيم! كل ذلك كان أو سيكون مع أنها لم ترتكب إثما، ولم تقترف ذنبا، وهي براء من كل ما يجول بنفوسهم، وأبعد ما تكون عما يمرُّ بخواطرهم[٧٩]." إذا، كان لابد أن تستتر عن أعين هؤلاء، وتختفي عن أنظارهم، وتتحاشا الاختلاط بهم، ولن يتحقق ذلك إلاَّ باللجوء إلى مكان قصي عنهم.

وتتوالى الأخبار عن قصة (مريم) عليها السلام، ومعاناتها بالطفل الذي تحمله، وتنبئ الآية الكريمة التالية باقتراب ساعة الوضع، فقد أحست بألم المخاض، ذلك الوجع الذي يصاحب الولادة، وهي عند جذع نخلة يابسة في فضاء واسع، وحيدة بلا أم أو شقيقة تساعدها، وتستند إليها، وتخفف عليها أوجاعها، وما أن ولدت طفلها حتى تمنت لو ضمها القبر، وفارقت هذا العالم قبل أن يكون بين أحضانها طفل من غير أب، وقد جاء القرآن ينقل لنا هذا الخبر على النحو الذي ورد في قوله تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا[٨٠]}، وتبدأ الآية الكريمة ــ هنا ــ بفاء التعقيب أيضا، لتدل على سرعة توالي هذه الأحداث: إخبارها من قبل (جبريل) عليه السلام بأنه مُكلف بأن يهبها غلاما، ثم

حملها بذلك الغلام الموعود ثم إحساسها بآلام الوضع، فولادتها له عند تلك النخلة.

ولإلقاء الضوء على الجوانب البلاغية التي يحملها هذا الخبر نبدأ مع قوله تعالى: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ) ولم يقل: فجاءها وإن كان منقولاً منه، ودل هذا الاستعمال على أن المخاض قد اضطرها للاتكاء على جذع النخلة عند الولادة والالتجاء إليه إما للتستر خلفه خشية من أحد يراها، أو للاستناد إليه، أو للسببين معا، وهو الأرجح. وفي كتب التفسير: "أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء[٨١]." وتلاحظ تقديم المفعول به (الهاء) في قوله: (فَأَجَاءَهَا) على الفاعل (المخاض) لأن الاهتمام متوجه لشأن (مريم) عليها السلام وهي في ذلك الموقف الحرج بالنسبة لها، واستعمل (المخاض)، ولم يقل: وجع الولادة، وفي هذا الاستعمال دلالة على تحرك الجنين في البطن بشدة لقرب خروجه، لأنه مأخوذ من (المخض)، وهو الحركة الشديدة[٨٢]. ولو قال: وجع الولادة لما أفاد ذلك المعنى الخاص بحركة الجنين للخروج.

وقوله: (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) أفاد أنها التجأت إلى ساق نخلة يابسة في تلك الصحراء، لا سعف عليها، ولا ثمر فيها، ولو كانت خضراء مثمرة، لقال: إلى النخلة، ولم يحتج لذكر الجذع، ومجيء (النخلة) بالتعريف بـــ (ال)، فالظاهر فيه من تعريف الأسماء المعروفة لدى المخاطبين، "كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة، فهم منه ذلك دون سائره[٨٣]".

ومن بديع تعليل المفسرين في ولادتها عند تلك النخلة اليابسة في الصحراء وقت الشتاء، والنخلة أقل الأشياء صبرا على البرد ولا يمكن أن تثمر إلا عند اللقاح، يقولون: "فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر، فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح، ثم إني أُظهرُ الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر[٨٤]". وفي هذا التعليل من جمال التناسب وبليغ الإعجاز ما لا يخفى.

وفي قوله تعالى { قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا }ذكر الله سبحانه ــ على لسان مريم عليها السلام ــ استعمالها لأسلوب النداء الذي يفيد التحسر و (ليت) الخاصة بالتمني، وهو طلب مستحيل مرغوب فيه، وفي الآية الكريمة يظهر تمنيها عليها السلام الموت لو كان حاصلا لها قبل ولادتها، استحياء من الناس، وخشية لومهم لها، وهما أسلوبان من أساليب الإنشاء الطلبي، وليسا (خبرا)، ولذلك يحسن الإيجاز في تناول هذا الجزء من الآية لعدم دخوله ضمن (الأساليب الخبرية) موضوع البحث، وخلاصة القول في ذلك: أن مريم عليها السلام على الرغم من علمها عن طريق (جبريل) عليه السلام بالوعد الكريم لها من قبل الله سبحانه، إلا أنها تمنت (الموت) وهو تمنٍّ يتعلق بأمر ديني، فلا كراهة فيه، ولعل كان من أسباب تمنيها للموت خوفها من وقوع الناس في المعصية بسبب كلامهم في شأنها، كما أشار إلى ذلك بعض المفسرين[٨٥]. والنَّسي:

بفتح النون، وكسرها (لغتان)، تعني: الشيء الحقير الذي من شأنه أن يُنْسى، ولا يذكر، ولا يُتألم لفقده، والمنسي: ما لا يخطر بالبال لتفاهته، أي: تمنت لو كانت شيئاً لا يُعتدُّ به، ولا يخطر ببال أحد من الناس[٨٦]. وفي ذلك دلالة على شدة الهم والحزن الذي اعتراها بعد حصولها على ذلك الولد من غير زواج مما يعرضها للتهمة من قبل قومها، وقد أخطأ من ظن أن تمني (مريم) عليها السلام للموت كان بسبب شدة الوجع أثناء الوضع، ويؤيد هذا ما ذكره الله سبحانه من طمأنته لـــ (مريم) في تلك الساعة العصيبة في حياتها وإكرامه لها بما يدعو إلى السكينة في الآية التالية لهذه الآية مباشرة، وهو قوله تعالى: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[٨٧]}

وقوله تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[٨٨]}

والملاحظ ــ هنا ــ أن الكلام في ما سبق كان على لسان (مريم) مباشرة تتمنى فيه لو كانت في عداد الموتى قبل أن تكون في ذلك الموقف الحرج والمفزع المخيف بالنسبة لها، وجاءت الآيات بعدها كلام مباشر من الذي كان سبب ذلك الخوف، ومبعث ذلك الهم والحزن، وهو مولودها (عيسى) عليه السلام، فقد ذكر المفسرون أن الذي ناداها إما أن يكون (جبريل) عليه السلام، أو ابنها (عيسى) عليه السلام والقرائن كثيرة هي التي تدعم القول بأن المنادي لها هو ابنها (عيسى) عليه السلام، وأهمها: قراءة بعض قراء أهل الكوفة والبصرة (فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا) أي: الذي تحتها، وهو (عيسى) عليه السلام، (بفتح الميم لـــ (مِن) والتاء من كلمة (تحتِها) فتصير (مَنْ

تَحْتَهاَ)، والثاني هو أن ردَّ الضمير على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه، فقوله تعالى: (فحملته) أي (عيسى) فانتبذت به، ثم قيل (فناداها) نسقا على ذلك من ذكر (عيسى) والخبر عنه، بل زاد بعض المفسرين على ذلك بقوله: "ولعلة أخرى، وهي قوله: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ)، ولم تشر إليه إن شاء الله إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: (أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) وما أخبر الله عنه أنه قال لها أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولا من (جبريل)، لكان خليقا أن يكون في ظاهر الخبر، مبينا أن عيسى سينطق، ويحتج عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله[٨٩]". أضف إلى هذا، أن بعض الروايات ذكرت في الحديث عن هذه الآية الكريمة أن (مريم) عليها السلام، قالت بعد سماعها للنداء من تحتها: (أَلاَّ تَحْزَنِي): كيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج فأقول من زوج، ولا مملوكة فأقول من سيدي، أي شيء عذري عند الناس[٩٠].

وهذه الرواية ــ إن صحت ــ تؤكد بلا شك أن الذي ناداها من تحتها: هو (عيسى) عليه السلام، ليس (جبريل)، وتميل الدراسة إلى هذا الرأي لقوة الحجج المذكورة آنفا، هذا من جهة، ولحاجة (مريم) عليها السلام الشديدة ــ في ذلك الموقف العصيب ــ إلى إدخال الطمأنينة على قلبها من جهة أخرى، ومن الطبيعي أن يتبدَّد ذلك الحزن، وينتهي ذلك الهم وتحيط الطمأنينة بها ما دامت قد علمت أن

الذي يتكفل بالرد على القوم هو ذلك المولود نفسه، فقد منحه الله ذو الجلال والإكرام القدرة على الكلام وهو في المهد.

وفي قوله: (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) بدأ الكلام بـــ (قد) التي دخلت على الفعل الماضي فأفادت التحقيق، كما أفاد إضافة الرب إلى ضمير الخطاب في قوله (ربك) دلالة على كمال العناية الإلهية بها، وإضافة الظرف إليها في قوله (تحتك) دلالة قرب الماء الجاري العذب منها، فلا تحتاج لبذل جهد في طلبه، وقيل المراد بالسري: عيسى ــ عليه السلام ــ مأخوذ من السرو بمعنى الرفعة والشرف، يقال: سَرُو الرجل يسرو، كشُرف يشرف، فهو سريٌّ إذا علا قدره وعظم أمره، وعلى هذا، يكون معنى الآية الكريمة: قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر، وهو ابنك عيسى[٩١]. والمعنى الراجح للسري في الآية: الجدول الصغير من الماء، وسمي سريا، لأن الماء يسري فيه، ويعضد هذا قوله: (فَكُلِي وَاشْرَبِي) مستهل الآية التي جاءت بعد قوله تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[٩٢]} إذاً، لا معنى للحزن، فإن ربك لم يَنْسَكِ، ولم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جدولاً يتدفق ماؤه عذبا سلسبيلا، وتلك النخلة التي استندتِ إلى جذعها، هزيها لتساقط عليك رطبا صالحا للاجتناء والأخذ (جنيا) ناضجا مستويا، فهذا طعام، وذاك شراب، وقد وفرهما الله جل شأنه إليك اهتماما بشأنك وعناية بك وتقوية لجسدك الذي أضناه تعب الولادة من جهة، والحالة النفسية التي تعيشينها بسبب التفكير في مواجهة قومك من جهة أخرى. والواو في الآية عطف على ما قاله

(عيسى) لأمه: لا تحزني...إلخ، وهي تتضمن طلب الله سبحانه من (مريم) على لسان ابنها (عيسى) أن تحرك جذع النخلة ليتساقط لها الرطب، مع قدرته على إنزاله إليها دون الحاجة إلى هز أو تحريك، وفي ذلك إشعار بأن المؤمن ينبغي له الأخذ بالأسباب في طلب الرزق ولا ينافي ذلك التوكل على الله، لأن الله أمر العباد بذلك.

وفي قوله (إليك) يفيد معنى أميلي جذع النخلة إليك واجذبيه بتحريكه نحوك، أي هزيه إلى جهتك، أما الباء في قوله (بجذع النخلة) فقد أفاد دخولها التوكيد، والعرب تستعمل ذلك فيقولون: تزوج فلان بفلانه، وأخذ بالخطام... ونحوه، وهو مثِل قوله تعالى في آية أخرى: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[٩٣]}، وربما أفادت إلصاق الفعل بمدخولها، أي: افعلي الهزَّ بجذعها، أو هُزّي الثمرة بهز جذعها[٩٤]. وفي قوله: (تساقط) وفي قراءة البراء بن عازب (يُساقِط) بالياء، ويكون المعنى هنا: يتساقط الجذع عليك رطبا جنيا، وأما القراءة المشهورة (بالتاء) فتعني: تساقط النخلة عليك رطبا، فالياء: للجذع، والتاء: للنخلة[٩٥]. وأفاد الجار والمجرور في قوله: (تساقط عليكِ) إشعار (مريم) عليها السلام، بأن اخضرار الجذع اليابس، وظهور ذلك الرطب في غير حينه ناضجا مستويا، إنما كان من أجلها، لتطمئن قلبا، وتطيب نفسا، وقد أفاد العلماء من هذه الآية الكريمة: "أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب، قالوا: لأنه لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله –تعالى– لمريم[٩٦]".

وبدأت الآية التالية بثلاثة أفعال متتالية، وكلها جاءت بصيغة الأمر معطوفاً بعضها على بعض، قال تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا[٩٧]} ويظهر من تأويل المفسرين لهذه الآية الكريمة أن الكلام ما زال لـــ (عيسى) عليه السلام، وسواء نُسِبَ الكلام إلى الله، أو نسب إلى (عيسى) فإنما يتكلم (عيسى) عما يوحيه الله إليه، فهو نبي منذ لحظة ولادته بقرينة قوله وهو في المهد (وجعلني نبيا)، وهل تكلم (عيسى) في المهد إلاَّ عن طريق الإعجاز بأمر ربه؟ والذي يهم الدراسة ــ هنا ــ بيان الجوانب البلاغية للأساليب الخبرية في هذه الآية، ولا بأس ــ هنا ــ بالكشف عن بلاغة هذا الترتيب في الأفعال الثلاثة المذكورة ــ وإن كانت أساليب إنشائية طلبية تعتمد أسلوب الأمر ــ حيث بدأت الآية بالفعل (كُلِيْ) ومجيء الأكل قبل (الشرب) في الآية مع ذكر جدول الماء قبل سقوط الرطب في الآية التي قبلها، أفاد أن حاجة (مريم) عليها السلام وهي على تلك الحالة للطعام أكثر من حاجتها للشراب، لما فقدته من طاقة كبيرة أثناء الولادة، ولذا جاء تقديم الأكل على الشرب في الآية، أما تأخير قوله: (وقري عينا) على الرغم من أن مضرة الخوف لكونه ألما للروح، هو أقوى وأشد من مضرة الجوع والعطش لكونهما ألما للجسد، فإن ذلك يفيد بأن كلام ابنها (عيسى) لها وهو في المهد طمأنها بهذه الكرامة لها ولابنها، فما عاد الخوف مصيطرا على نفسها بعد ظهور هذه الحجة الدامغة لمن يشك في براءتها. فصار الترتيب موافقا تمام

الموافقة لمقتضى الحال. وأما ما تضمنته بقية الآية الكريمة فبيانه على النحو التالي:

في قوله تعالى حكاية منه لبقية كلام (عيسى) لأمه: (فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما) فيه حذف جملة بكاملها، وهي: من البشر أحدا فسألكِ عن أمري وشأني فقولي إني نذرت، وهذا الحذف يمكن تأويله بحرص (عيسى) عليه السلام على عدم ذكر ما تضيق أمه لسماعه لأنها تخشى أشد ما تخشى من سؤال قومها لها من أين لكِ هذا المولود؟ فتجاوز (عيسى) عليه السلام ذلك إلى جوابها لأي أحد يلقاها من الآدميين كائنا من كان، بالصمت، أو إخبارهم بنذرها عدم مخاطبة الآدميين بأي كلام، لا في شأن مولودها، ولا في شأن غيره، وإنما ستترك ذلك لطفلها، ليشرح بنفسه لهم حقيقة أمره.

وقد أجاد المفسرون في بيان حكمة صمتها حين قالوا: "إنما منعت من الكلام لأمرين: أحدهما: أن يكون (عيسى) هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها، في هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل. والثاني: كراهة مجادلة السفهاء، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب[٩٨]."

ويبدو أن (الصوم) في الآية الكريمة مخصوص في فعل الكلام ولا أظنه يشمل الإمساك عن الطعام والشراب، ويؤيد ذلك أمران: الأول: حاجتها للأكل والشرب لكونها حديثة عهد بالولادة، والثاني: ورود

الكلمة (صوما) في مصحف عبد الله: صمتا، وعن أنس بن مالك مثله[٩٩]، "وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت، لأنه نسخ في أمته[١٠٠]". وأفاد ذكر اللفظ (إنسيا) في آخر الآية الكريمة، أن صومها ذاك مقتصر على الإمساك عن مكالمة الآدميين، ولا يدخل ضمن ذلك مناجاة الله عز وجل، ولا مكالمة الملائكة عليهم السلام.

وبين هذه الآية الكريمة وما بعدها كلام محذوف يُفهم من سياق القصة، تقديره: "وبعد أن أستمعت (مريم) إلى ما قاله لها ابنها (عيسى) عليه السلام، اطمأنت نفسها، وقرت عينها، فأتت به...[١٠١]".

وعلى هذا، تكون (الفاء) في بداية الآية (حرف عطف) عطفت الكلام اللاحق على الكلام المحذوف المشار إلى تقديره وأفاد ذلك الحذف، تمكن الاطمئنان في نفسها، وعودة الثقة إليها في قدرتها على مواجهة الناس بذلك المولود الذي سيكون كلامه حجة، يعلن للملأ براءتها، ويكف الألسن عن لومها. وفي قوله تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ} أفاد استعمال الجار والمجرور (به) صحبة ابنها لها، وفي ذلك دليل على عزمها تقديم مولودها للقوم لأنها واثقة تمام الثقة بأنه سيدافع عن عفافها وشرفها، وفي قوله تعالى: (تحمله) بصيغة المضارع ليفيد مثول ذلك الأمر للعيان، وأنها لم تحاول إخفاءه عن أنظارهم، ولا ستره عنهم، وكأنها تقول لهم: هاأنذا أمامكم مع مولودي الذي وهبه الله لي، وليجعله آية للناس، ورحمة للعالمين،

ولكن ذلك يدور بداخلها، يترجم عنه فعلها لا قولها، لأنها في حالة صمت واجب (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)، أي: عندما رأوها ومعها وليدها تحمله على ذراعيها، قالوا ذلك الكلام: يا مريم لقد جئتِ شيئا فريا، وقد أفاد النداء بالياء وهو حرف نداء خاص بمناداة البعيد على الرغم من قربها منهم، أفاد التعبير عن واحد من أمرين، الأول: أن ما يشاهدونه أمام أعينهم من حصول (مريم) على مولود وهي من دون زوج، هو بعيد كل البعد عن سلوكها المعهود عندهم وعن سلوك أهلها المعروفين بالطهارة والعفاف والإيمان، فكأنهم ينادون امرأة بعيدة عن المرأة التي عرفوها. والثاني: أن دلالة (الياء) على البعد تتفق مع بُعد ما ذهبوا إليه وظنوه من ارتكابها إثما كبيرا لا يقترفه أمثالها، وقوله: (لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) أفادت اللام التوكيد، وأفادت قد التحقيق لدخولها على الفعل الماضي، والمعنى: لقد فعلتِ شيئا منكرا غريبا بالنسبة لما عرفناه عنك، والفري: مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته، ويكون المعنى ــ على هذا ــ فعلتِ شيئا قاطعا وخارقا للعادة إذ أتيت بهذا المولود عن طريق الفحش أو الزنا، وما عهدناك كذلك، واستعمال: (شيئا فريا) في وصف ما قامت به، أبلغ من قول: (فعلاً شنيعا) لأن الأول أبعد عن التصور من التعبير الثاني.

وفي الآية بعده: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا[١٠٢]} بدأت الآية باستئناف الخطاب لها، ولم يأت النداء

هذه المرة باسمها يا مريم، بل قال: يا أخت هارون، وفي ذلك تجديد للتعبير من جهة، وإظهار للاستغراب من فعلها من جهة أخرى، أي: كيف تفعلين ذلك وأنت مثيلة لهارون في صلاحه وتقواه، "وليس المراد بهارون: نبي الله أخا موسى ــ عليهما السلام ــ وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى، فشبهت به، أي: يا أخت هارون في الصلاح والتقوى[١٠٣]".

وقوله: { مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ} أي لم يكن أبوك ممن يفعلون السوء مثل الزنا والفحش ونحوهما، أي كان من الصالحين فكيف صرتِ أنتِ خلاف ما هو عليه من الصلاح. { وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا }أي، لم تبعد أمك عن طريق الطهر والعفاف، وما تعاطت فعل (الزنا) قط، فكيف أنتِ تفعلينه؟، وفي هذا الكلام من زيادة التوبيخ وشدة التقريع مالا يخفى، إذ يفهم منه أن (مريم) عليها السلام على الرغم من انتمائها إلى قوم صالحين عرفوا بالطهارة والتقوى والإيمان، وهي منحدرة منهم، ومن سلالتهم إلا أنها لم تنهج نهجهم، وبعد هذا الكلام الذي سمعته منهم، وذلك التوبيخ لها من قبلهم، شرعت في الدفاع عن نفسها لا بمحاورتهم ولا بجدالهم، بل عن طريق وليدها بالإشارة إليه، وكأنها تقول لهم بتلك الإشارة ها هو من تنكرون علي ولادته، فاسألوه عن حقيقة الأمر، ووجهوا كلامكم إليه، يقول تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا[١٠٤]} ومن النكت البلاغية في هذه الآية الكريمة:

١- قوله تعالى: (فَأَشَارَتْ)، أفاد استعمال (الفاء) التعقيب، أي: أن إشارتها إليه كانت عقب كلامهم عليها وتوبيخهم لها وتهمتهم إياها بالزنا، وهو ما كانت تخشاه.

٢- في قوله (فَأَشَارَتْ) دل على أنها تنفذ النذر الذي أخذته على نفسها فيما يتصل بالصمت، كما دل على ثقتها بربها واطمئنانها لوعده لها على لسان ابنها، وكيف لا؟ وهي قد سمعت كلام وليدها منذ ساعة ولادته وهو يتكلم بأفصح لسان وينطق بأوضح بيان.

٣- في قوله تعالى: (إِلَيْهِ) ولم يقل إلى ابنها، أو صغيرها، أو وليدها... ونحو ذلك فيه إظهار لعظمة المشار إليه، وأنه قادر بذاته وشخصه على إخراس القوم وإيقافهم عن سوء الكلام وقبح الاتهام، كما أن في استعمال الضمير دون إضافته لأمه إشارة إلى غياب دور أمه في الأحداث اللاحقة، وأنه هو من سيقوم بتلك الأدوار، وهو ما أظهرته الآية التالية لهذه الآية الكريمة، بدءا بقوله تعالى على لسانه عليه السلام: (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ....الآية).

٤- أما قوله تعالى: { قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} ، ففي قوله تعالى (قَالُوا) دليل على أنهم فهموا معنى إشارتها واستنكروا ذلك، واستغربوه، فوجهوا لها سؤالهم: (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)، والمهد: ما تهيئه الأم لطفلها عند رضاعه أو نومه، أي: كيف تطلبين منا الكلام مع صبي

صغيرٍ ما زال في مهده، وفي حال رضاعه، وجاء الفعل (كان) في الآية بمعنى المضارع، وقال بعضهم بأنه جاء بمعنى (حصل) أو (وُجِدَ) أي: كيف نكلم من وُجِد في المهد؟، وقد يكون المعنى: كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام في المهد، وقد "اختلفوا في المهد فقيل: هو حجرها لما رُوي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها، فلما رأوها قالوا لها ما قالوا، فأشارت إليه وهو في حجرها، ولم يكن لها منزل مُعَدُ حتى يُعد لها المهد[١٠٥]" وفي الجمع بين قوله (في المهد) وقوله (صبيا) تأكيد على كون كلامهم معه مستحيلا، لصغره وكونه مازال في المهد، وفي ذلك إظهار لتعجبهم من طلبها في مخاطبته.

ومع نهاية هذه الآية الكريمة يتوقف الحديث عن قصة (مريم) عليها السلام، لينتقل الحديث عن ابنها (عيسى) عليه السلام، ولأن الدراسة مقتصرة على قصة (مريم) فإن الحديث عن (عيسى) عليه السلام سيكون مقتصرا على الآيات الأربع التي تتضمن كلامه ــ عليه السلام ــ وهو في المهد لارتباطها بقصة أمه (مريم) ــ عليها السلام ــ موضوع البحث.

ثالثا ــ بلاغة الأسلوب الخبري في قصة (عيسى) عليه السلام:

يبدأ هذا الجزء من القصة بعد أن نفَّذتْ (مريم) عليها السلام وصية طفلها التي لقنها إياها، وهي أن تلتزم الصمت ولا تجيب على أسئلة القوم عندما يستنكرون مجيئها إليهم بطفل من غير طريق شرعي في ظنهم، فما عساها تقول لقوم يحيطونها بنظرات الاستغراب، وقلوب يملؤها الغيظ وهم يرونها على ذلك الحال، وهي غير مكترثة لموقفهم منها، بل كأنها تتبجح وتسخر منهم حين تطلب منهم عن طريق الإشارة أن يسألوا صغيرها عما يريدون الاستفسار عنه فاستنكروا ذلك الأمر، إذ كيف يكلمون طفلا صغيرا رضيعا مازال في المهد.

فيبدأ دور هذا الطفل العجيب، حين يحرك شفتيه ليخاطب من كان حاضرا بالنيابة عن أمه، في مشهد مروع، يتحدث لهم بلسان طلق، وكلام فصيح، وبيان يتسامى فوق كل بيان، يُظهر لهم حقيقة أمره، والغاية من مولده، ويحدد لهم كيفية وجوده، ومضمون حياته، فصار كلامه ذلك حدثا عظيما بهر العقول، وأدهش الأسماع، لأنهم رأوا بأم أعينهم تلك المعجزة الخارقة واقعا محسوسا لا سبيل لنكرانها، فكفت عندئذ الألسن عن لوم أمه، وإن حاول مجافاة هذه الحقيقة بعض سفهائهم، فلم يرتدعوا عن اللغط والدس، ولاتهم هذه الفئة (مريم)

عليها السلام، لأن المعجزات البينات الناطقات ببراءتها أقوى من جهالتهم وظلالهم الذي طغى على بصيرتهم فأفقدها القدرة على الإدراك، ولترصد الدراسة ــ هنا ــ في هذا القسم ذلك الكلام الذي ردَّد جوانب الكون أصداءه على المسامع، وذكره الله ــ سبحانه ــ لنبيه في القرآن الكريم ليتلوه المؤمنون ليلاً ونهارا ويعرف بقصة هذا المولود وأمه أممُ بعد أمم، وعالم بعد عالم، وعلى الرغم من أن ذلك الكلام لم يتحدث إليهم فيه عما وجهوه إلى أمه من لوم، ولم يجادلهم في تهمهم الموجهة لتلك التقية الطاهرة، فإن مجرد خطابه لهم كفيل برفع تلك التهم كلها، بل قال لهم {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا[١٠٦]}، وبما أن هذا النص القرآني الذي جاء محكيا على لسان طفل صغير مازال في المهد، هو (عيسى) عليه السلام بما أنه هو المفتاح لبراءة العذراء (مريم) عليها السلام والمؤكد لعفتها وطهارتها، والمبرهن على عظمة مكانتها عند الله ــ سبحانه ــ وعلو شأنها، وجلال قدرها، فإن هذه الدراسة ستتولى تحليل أساليبه الخبرية وتحاول الكشف عن جوانبه البلاغية كما فعلت الأمر نفسه مع قصة (أم مريم) عليها السلام في بداية هذا البحث نظرا للارتباط الوثيق مع قصة (مريم) ــ عليها السلام ــ موضوع هذا البحث.

ولتكن البداية مع أول كلمة في النص: (قال: إني عبد الله) فقد أفاد إخبار العزيز الجليل بقوله: (قال) أي (عيسى) عليه السلام، ولم يذكر الفاعل، بل تعداه إلى الكلام المقول علي لسانه مباشرة، لأن إشارة إمه إليه وإيعازها لهم بمخاطبته قرينة كافية لتدل على الفاعل الذي بات معلوما. وفي ذلك إلى جانب فائدة الإيجاز عن طريق الحذف، إيحاء بعظمة المتكلم ــ صاحب ذلك القول ــ، كما أن مجيء الفعل (قال) في صيغة الماضي يحمل دلالة وقوع الأمر حقيقة، أي: لقد نطق ذلك الطفل فعلاً وتكلم على الحقيقة. ثم جاء نص الكلام ــ على لسان (عيسى) عليه السلام ــ (إني عبد الله) فذكر أول ما ذكر من وصفه لنفسه صفة العبودية لله ــ سبحانه ــ مع أن المقام يقتضي نفي تهمة الزنا عن أمه عليها السلام، يقول الإمام الرازي: "وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا: أول ما تكلم تكلم بها... وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله ــ سبحانه ــ لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى[١٠٧]." وقوله: (إني عبد الله) أبلغ من قوله: أنا عبد الله، لتضمن ما جاء به النص القرآني أداة التوكيد، وخلوها في الثاني. وهذه أولى الصفات التسع التي وصف بها (عيسى) عليه السلام نفسه في ذلك النص، والصفة الثانية قوله: (آتاني الكتاب) والثالثة: (وجعلني نبيا)، "والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الكتاب وجعله نبيا وأمره بالصلاة والزكاة وأن

يدعو إلى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة، فقيل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه، وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة، وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله، وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها، فلهذا أشارت إليه بالكلام[١٠٨]".

والكتاب ــ هنا ــ المقصود به (الإنجيل)، وقال بعضهم في معنى ذلك: "أي: سينزل علي الإنجيل... وسيجعلني نبيا، وفي هذا براءة لأمة، لأن الله لا يصطفي لنبوته أولاد سفاح[١٠٩]".

وخلاصة القول في ذلك، أن البلاغيين يستدلون من استعمال الفعل (الماضي) للمستقبل، تحقق الفعل، وأنه لابد كائن، ولكون حدوثه متيقنا استعمل مع (الماضي) وكأنه حدث، ففي الكلمتين (آتاني) و (جعلني) ما يفيد إتيانه الكتاب لا محالة، وجعله نبيا، أمر قد قضى الله فيه وحكم به البتة. يقول المراغي في قوله تعالى (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ) "أي: سيجعلني نفاعاً للناس، هاديا لهم إلى سبيل الرشاد في أي مكان كنت وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلا، وهي لم تحصل بعد، من قِبَل أنها لما كانت واقعة حتما، نزلتْ منزلة ما قد حصل[١١٠]". وتلك هي الصفة الرابعة، أما الصفة الخامسة، فهي قوله: (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)، وفي ذلك ما يشير إلى أن الله سبحانه جعل (عيسى) عليه السلام قادرا على أداء الصلاة لأنها رمز لطهارة النفس، ونقاء السريرة وهو في ذلك السن، كما أمره بالزكاة لينال من خيره وبركاته كل بائس وكل محتاج، مادام هو حي في الدنيا، ولا عجب أن يكلف

بذلك وهو طفل صغير، لأنه معجزة من الله منذ وصول أمه إلى هذه الدنيا، وحملها به، وولادتها له، ومجابهة قومها به، ولعل في قوله: (مادمت حيا) ما يفيد أن هذا التكليف موجه إليه في جميع زمان حياته عليه السلام. وقوله: (وَبَرًّا بوَالِدَتِي) وهي الصفة السادسة، ويمكن الوصول عن طريقها إلى أكثر من وجه بلاغي، الأول: قوله (بَراً) ولم يقل أوصاني بأن أبر بوالدتي، لأن فيه ما يفيد المبالغة في البر حين جعل ذاته (بَرّاً)، والثاني: أن في ذلك إشارة إلى براءة أمه مما نسبوها إليه، وتنزيهها عن الزنا، إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها وإجلالها وبرها، وقوله: (بوَالِدَتِي) فيه دلالة على أن ولادته جاءت من جهة الله سبحانه، بدون أب. ولا يخفى ما في ذلك من تأكيد على براءة أمه وعفتها وتقواها.وأما الصفتان السابعة والثامنة اللتين ذكرهما لنفسه فهما في قوله: (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) إذ نزهه الله عن تلكما الصفتين السيئتين، والجبار: المتكبر المغرور، والشقي: من يرتكب المعاصي والموبقات وفي ذلك تأكيد على مكانة هذا المولود إذ وصفه الله سبحانه بمجموعة من الفضائل، ثم نفى عنه الصفات الرذيلة، وفي تقديم ذكر التجبر على الشقاء تدرج من السيئ إلى الأسوأ إذ أن التجبر جزء من المعاصي التي نهى الله عباده عن مزاولتها، فالشقاء عام، والتجبر خاص، أما تقديم الصلاة على ذكر الزكاة في وصية الله له بالمحافظة على أدائهما، فأفاد أن تطهير الروح ينبغي الاهتمام به أولاً، فإذا طهرت الروح وصفت النفس، صارت مؤهلة لبذل الخير والعطاء للمستحقين. وختم سبحانه وتعالى كلام (عيسى) عليه السلام

بقوله: { وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} وهذه هي الصفة التاسعة تتعلق برجاء الأمان من الله، ولم يكن هذا التسليم من قبل (عيسى) على نفسه إلاَّ بتسليم الله عليه، والسلام: يشمل الحصول على الأمان واستمرار النعم والحماية من كل شيء يسبب زوالها، ولذلك جاء طلب الأمان في أعظم أحوال الإنسان احتياجا إليه، وهي: يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث فإذا حصل للإنسان الأمان من الخوف والفزع في هذه الحالات الثلاث، فقد جُمعت له السعادة في كل الأحوال، وقد جاء الترتيب في ذكر تلك الأحوال الثلاثة بحسب ترتيبها الزمني، لأن الإنسان يخرج أول الأمر إلى هذه الدنيا عندما يُوْلد، ثم ينقضي الأجل الذي قضاه الله له، ويبعث بعد ذلك للحساب والجزاء. والملاحظ أن هذه الصفات التسع التي وصف (عيسى) ــ عليه السلام ــ بها نفسه قد افتتحت بالعبودية لله تبارك وتعالى، وهي الحقيقة التي من أجلها أرسل الله الرسل، وبعث لتبليغها الأنبياء عليهم السلام، وفي ذلك بطلان ادعاء النصارى بأنه ــ عليه السلام ــ هو الله، أو هو ابنه، أو هو المشارك له في العبادة، كما اختتم هذه الصفات، بأن من أخلص لله عبادته سيبارك الله فيه، ويمنحه الأمان من كل ما يخشاه، والسعادة مدى الحياة.

وبهذه الآية الكريمة التي يقف البحث عندها يحسن أن نقول في هذا المقام ما قاله الله سبحانه تبارك وتعالى: { ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} صدق الله العظيم.

الخاتمة:

تلك هي بلاغة الأساليب الخبرية في القصة القرآنية قد اتخذت هذه الدراسة لها من (قصة مريم) عليها السلام نموذجا وهو نموذج مشرق ببلاغته وبيانه وعبرته ووعظه وإرشاده، وكل القصص في القرآن نماذج مشرقة، واستدعى موضوع البحث أن يبدأ مع قصة (أم مريم) عليها السلام، لأنها تشكل مفتاحاً لموضوع الدراسة فأمها كانت عاقرا، وقد كبر سنها، ومع ذلك لم تيأس من رحمة الله وهي المؤمنة القانتة العابدة، فبشرها زوجها قبل موته بأن الله وعده بأن يرزقه بمولود سيجعله الله نبيا لبني إسرائيل، فتحمل الأم، وتنتظر ذلك المولود، وتنذره لبيت المقدس، وتفاجأ عند ولادته بأن جاء المولود (أنثى)، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك مع هذه الأنثى، ويعرض القرآن الكريم قصتها في سورة مستقلة باسمها، هي سورة (مريم) وهي السورة الوحيدة التي أنزلها الله باسم امرأة، كما أنها هي المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها في القرآن دون سائر النساء، وهي المرأة التي فضلها الله سبحانه على نساء العالمين، وخصها بولادة المسيح بنفخه فيها من روحه تبارك وتعالى، وجعل ابنها يتكلم في المهد صبيا، وأحيى من أجلها الجذع الميت اليابس، فأثمر لها رطبا جنيا، وأجرى النهر تحت أقدامها عذبا فراتا، وقد بينت هذه الدراسة، كيف تم عرض ذلك كله في الأسلوب القرآني، وكيف تجلت بلاغة تلك الأخبار المتلاحقة لهذه الأحداث التي تنقلنا من خبر عجيب، إلى خبر

أعجب، ومن أسلوب بليغ إلى أسلوب بليغ آخر، وقد تمخضت هذه الدراسة عن جملة من النتائج، ولعل أهمها ما يلي:

١- يغلب على القصة القرآنية الأساليب الخبرية وإن كانت بعض الأحداث تستدعي أساليب إنشائية، وأغلبها جاءت إنشائية طلبية يكثر فيها أسلوب الاستفهام، وأسلوب الأمر، ويأتي أسلوب النداء ثالثا، والنهي رابعا، وكل له غرضه البلاغي.

٢- يكثر الأسلوب الخبري المؤكد بأداة التوكيد (إن) أو بـــ (قد) وليس من الضروري أن يكون المخاطب مترددا في قبول ذلك الخبر المؤكد.

٣- يكثر أسلوب الحذف وبخاصة (حذف الجمل) في القصة القرآنية اعتمادا على السياق، وفي ذلك حفاظ على المتعة لدى المتلقي، وعدم الشعور بالملل عن طريق ذكر ما هو معلوم لديه.

٤- تهتم القصة القرآنية في سرد أخبارها برعاية الفاصلة، التي يقابلها (فن السجع) في الكلام الآدمي، وفي ذلك يتجلى جمال النظم القرآني ويضيف للمتلقي متعة فنية تدفعه إلى طلب المزيد.

٥- قد يتكرر ذكر الحدث في القرآن الكريم للقصة الواحدة، ولكن ذلك التكرار يأتي محققا للهدف العام الذي تسعى السورة إلى تحقيقه وعلى هذا، فإن مجيء الحدث مكررا يحمل صفة إيجابية بالنسبة للنص من جهة، ولمتلقيه من جهة أخرى.

٦- تتميز القصة القرآنية بسرد أخبار واقعية، ولا مجال للأحداث الوهمية أو الخيالية فيها، ومن هذا المنطلق يكون تفاعل المتلقي مع النص (وجدانيا)، وهذا الانفعال يغذيه عنصر الإقناع بما هو حادث فعلاً لا خيالا.

٧- تعرض القصة القرآنية الأحداث الواقعية بطريقة فنية، وتصوير جميل مما يسهم في عملية التشويق والاستجابة عند المتلقي.

٨- يكثر في القصة القرآنية الانتقال في الضمائر، من المتكلم إلى الغائب وكذلك العكس، كما يأتي المتكلم مفردا مرة، وبصيغة الجمع المفيد للتعظيم تارة أخرى، ويزيد هذا التنوع في الأسلوب المتعة لدى القارئ.

٩- تميزت أحداث القصة في القرآن الكريم بالتسلسل المنطقي، فجاءت الأخبار فيها حلقات متماسكة، وأخباراً مترابطة، يمسك بعضها ببعض، ويسند كل منها صاحبه.

وقادت هذه الدراسة إلى اقتراح عدد من الأبحاث يمكن القيام بها، خدمة للغة القرآن الكريم بصورة عامة، والقصة القرآنية بصفة خاصة، ومنها:

١- جماليات أسلوب الحذف في القصة القرآنية.

٢- وصف القرآن للمعاندين بعد ظهور المعجز.

٣- دور الملائكة في أحداث القصة القرآنية.

٤- الأسلوب القصصي في القرآن بين الخبر والإنشاء.

هذه بعض الموضوعات التي ترى الدراسة بأنها تستحق أن يفرد لها بحث مستقل ولعل فيها ما يخدم لغة القرآن الكريم، ويثري مكتبتنا الإسلامية والعربية، والحمد لله أولاً وأخرا.

الهوامش:

[1] – الشخص، محمد رضا، الدلالات البلاغية للإنشاء الطلبي في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي، دراسة علمية محكمة، (جامعة الملك سعود، عمادة البحث العلمي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

[2] – هذه الدراسة من إعداد: القطب عبد السلام طه الجيار، عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. وهي: رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.

[3] – هذه الرسالة مقدمة إلى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة دمشق، من إعداد: نوال سلطان، عام: ١٩٨٤م ـ ١٩٨٥م.

[4] – ومن هذه الدراسات ـ على سبيل المثال ـ (الأساليب الإنشائية في شعر: أبي فراس الحمداني، من إعداد: أحمد السيد طلحة داود، عام: ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م. و (الأساليب الإنشائية في شعر محمود سامي البارودي) من إعداد محمد عيسى محمد كمون، عام: ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

[5] – البستاني، محمود، دراسات فنية في قصص القرآن، (بيروت، دار البلاغة، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص: ٣٣٩.

[6] – انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت، مؤسسة جمال للنشر، د.ت)، لفظة (مريم) ص: ٦٦٥./ ولفظة (عيسى) ص: ٤٩٤-٤٩٥.

[7] – سورة آل عمران، الآية/ ٣٣.

[٨] – انظر في ذلك: الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج١، ط٣، (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص: ٣٥٤-٣٥٥.

وانظر ايضا: المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، ج٣، ط٢، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥)، ص: ١٤٣.

[٩] – سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

[١٠] – الزمخشري، الكشاف (مصدر سابق) ج١، ص: ٣٥٥.

[١١] – سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

[١٢] – انظر: الزمخشري (مصدر سابق) ــ ص: ٣٥٤، وتفسير المراغي (مرجع سابق)، ص: ١٤٣.

[١٣] – سورة التوبة، الآية: ٦٧.

[١٤] – سورة آل عمران، الآية: ٣٥.

[١٥] – البساتني، محمود، دراسات فنية في قصص القرآن، (بيروت، دار البلاغة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص: ٩٣.

[١٦] – انظر: الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، المجلد الرابع، ج٨، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م) ص: ٢٢.

[١٧] – الرازي، التفسير الكبير (مصدر سابق)، ج٨، ص: ٢٣.

[١٨] – في قوله تعالى: " وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" من سورة (الفرقان)، وقوله تعالى: " وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَـؤُلاَءِ قَوْمٌ لّا يُؤْمِنُونَ" من سورة الزخرف.

[١٩] – فيود، بسيوني عبد الفتاح، من بلاغة النظم القرآني، (القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ص: ١٩٠.

[٢٠] – سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

[٢١] – الزمخشري، الكشاف (مصدر سابق)، ج١، ص: ٣٥٦.

[٢٢] – انظر: البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، (مرجع سابق)، ص: ٩٢ وما بعدها، فهناك تفاصيل أكثر حول هذا الأمر.

[٢٣] – انظر: فيود، من بلاغة النظم القرآني، (مرجع سابق) عما قاله عن: (وضع الخبر موضع الإنشاء والإنشاء موضع الخبر) ص: ١٩٩–٢٠٢.

[٢٤] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٨، ص: ٢٥.

[٢٥] – انظر: المصدر السابق، ص: ٢٦.

[٢٦] – انظر ذلك مفصلا في: الزمخشري، الكشاف، (مصدر سابق) ج١، ص: ٣٥٨.

[٢٧] – جاد المولى، محمد أحمد وآخرون، قصص القرآن، صححه ونقحه وعلق عليه: يوسف البقاعي، (بيروت، دار الأضواء، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص: ٣١٨.

[٢٨] – ذكر جاد المولى وآخرون في (قصص القرآن) أن (زكريا) عليه السلام خال (مريم) بينما ذكر الزمخشري في (الكشاف) والرازي في (التفسير الكبير) بأن (زكريا) زوج أختها (إيشاع) وجاء في الهامش رقم (٣) من الكشاف (الجزء الأول) ص: ٣٥٧ ما نصه: "قوله: أنا أحق بها، عندي خالتها، قوله: خالتها يعني زوجته (إيشاع) أخت (حنة)، لكن تقدم بأنها أخت (مريم) وقال صلى الله عليه وسلم في (يحيى) و (عيسى) هما ابنا خالة، وفي (أبي السعود) قيل في تأويل ذلك: أن الأخت كثيرا ما تطلق على بنت الأخت فجرى الحديث على ذلك، وقيل إن (إيشاع) أخت

(حنة) من الأم، وأخت (مريم) من الأب، بأن نكح (عمران) أم (حنة) فولدت (إيشاع) ثم نكح (حنة) ربيبتها فولدت (مريم) بناء على حل نكاح الربائب عندهم." وفي ذلك توجيه مقبول والله أعلم.

[٢٩] – سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

[٣٠] – سورة النمل، من الآية: ٨٧.

[٣١] – انظر: المراغي، أحمد مصطفى، علوم البلاغة، (بيروت، دار القلم، د.ت).

[٣٢] – الزمخشري، الكشاف، (مصدر سابق) ج٣، ص: ٣٨٦.

[٣٣] – الزمخشري، الكشاف، (مصدر سابق)، ج١، ص: ٣٥٨.

[٣٤] – أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم على مزايا القرآن الكريم، ج٢، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص: ٣٠.

[٣٥] – سورة الإسراء، آية: ٨٥.

[٣٦] – نحلة، محمود أحمد، علم المعاني، (بيروت، دار العلوم العربية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص: ٥٢.

[٣٧] – سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

[٣٨] – انظر في ذلك:

١– الزمخشري، الكشاف، (مصدر سابق) ج١، ص: ٣٦١.

٢– الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٨، ص: ٣٨.

٣– أبو السعود، تفسير أبي السعود، (مصدر سابق)، ج٢، ص: ٣٥.

[٣٩] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٨، ص: ٣٨.

[٤٠] – سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

[٤١] – سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

[٤٢] – المراغي، تفسير المراغي، (مصدر سابق)، ج٣، ص: ١٥٢.

[٤٣] – سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

[٤٤] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٨، ص: ٤٣.

[٤٥] – المراغي، تفسير المراغي، (مرجع سابق)، ج٣، ص: ١٥٤.

[٤٦] – سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

[٤٧] – الفيروز آبادي، مجد الدين محمد ين يعقوب، القاموس المحيط، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.): (الكهل)، ص: ١٣٦٣.

[٤٨] – انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جزءان في مجلد واحد، (استانبول، تركيا، المكتبة الإسلامية، د.ت.) مادة: (وخط)، ومادة: (بجل).

[٤٩] – سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

[٥٠] – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.)، ص: ٢٧٣.

[٥١] – الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير، ج٢، (دار الفكر، د.ت، ومجهول المكان)، مادة: مسس، ص: ٥٧٢.

[٥٢] – عرفة، عبد العزيز عبد المعطي، من بلاغة النظم العربي: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ج١، (بيروت، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.) ص: ٢٨١.

[٥٣] – أبو السعود، تفسير أبي السعود، (مصدر سابق)، ج٢، ص: ٣٧–٣٨.

[٥٤] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق) ج٤، ص: ٢٦.

[٥٥] – فيود، من بلاغة النظم القرآني، (مصدر سابق)، ص: ١٥٦.

[٥٦] – سورة آل عمران، الآية: ٤٨.

[٥٧] – انظر في تأويل هذا الترتيب، الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٨، ص: ٤٧–٤٨.

[٥٨]– سورة مريم، الآية: ١٦.

[٥٩] – قطب، سد، في ظلال القرآن، مج٤، (جدة، دار العلم للطباعة والنشر، ط١٢، ١٤٠٦هـ./١٩٨٦م.)، ص: ٢٣٠٤.

[٦٠] – انظر تفاصيل ذلك في: الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٢١، ص: ١٦٧.

[٦١] – البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، (مرجع سابق)، ص: ٣٤١–٣٤٢.

[٦٢] – سورة مريم، من الآية: ١٧.

[٦٣] – قطب، في ظلال القرآن، (مرجع سابق) مج٤، ص: ٢٣٠٥.

[٦٤] – سورة مريم، الآية: ١٩.

[٦٥] – جاد المولى وآخرون، قصص القرآن، (مرجع سابق)، ص: ٣٢٥.

[٦٦] – سورة مريم، الآية: ١٨.

[٦٧] – انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (مصدر سابق)، مادة (رحم)، باب المريم، فصل الراء، ص: ١٤٣٦.

[٦٨] – المراغي، تفسير المراغي، (مرجع سابق)، ص: ٤٢.

[٦٩] – الزناد، الأزهري، دروس في البلاغة العربية، ط١، (تونس، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م.)، ص: ١٠٨.

[٧٠] – سورة مريم، الآية: ٢١.

[٧١] – سورة آل عمران، آخر الآية: ٤٧، وبدايتها { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ ... }.

[٧٢] – الفيومي، الصباح المنير، (مصدر سابق)، مادة: (هون) ج٢، ص: ٦٤٣.

[٧٣] – انظر في ذلك: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، (مصدر سابق) مادة: آي، باب الياء، فصل الألف، ص: ١٦٢٨.

[٧٤] – زرزور، عدنان محمد، علوم القرآن وإعجازه، ط١، (الأردن، عمان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.)، ص: ١٦١.

[٧٥] – سورة مريم، الآية: ٢٢.

[٧٦] – سورة التحريم، الآية: ١٢.

[٧٧] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٢١، ص: ١٧٢.

[٧٨] – طنطاوي، محمد سيد، القصة في القرآن الكريم، ج٢، (القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠١م.)، ص: ١٢٩–١٣٠.

[٧٩] – جاد المولى وآخرون، قصص القرآن، (مرجع سابق)، ص: ٣٢٧.

[٨٠] – سورة مريم، الآية: ٢٣.

[٨١] – الزمخشري، الكاشف، (مصدر سابق)، ج٣، ص: ١١.

[٨٢] – انظر في ذلك، طنطاوي، القصة في القرآن الكريم (مرجع سابق)، ج٢، ص: ١٣٠.

[٨٣] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٢١، ص: ١٧٣.

[٨٤] – المصدر السابق، ص: ١٧٣.

[٨٥] – انظر: طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، (مرجع سباق)، ص: ١٣١.

[٨٦] – المراغي، تفسير المراغي، (مرجع سابق) مج٦، ج١٦، ص: ٤٣–٤٤.

[٨٧] – سورة مريم، الآية: ٢٤.

[٨٨] – سورة مريم، الآية: ٢٥.

[٨٩] – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج٩، ج١٦، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.)، ص: ٦٩.

[٩٠] – انظر: المصدر السباق، ص: ٦٩.

[٩١] – انظر الطنطاوي، القصة في القرآن الكريم، (مرجع سابق)، ج٢، ص: ١٣٢.

[٩٢] – سورة مريم، الآية: ٢٥.

[٩٣] – سورة البقرة، من الآية ٩٥، والآية بتمامها على النحو التالي {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

[٩٤] – انظر في ذلك: أبو السعود، تفسير أبي السعود، (مصدر سابق)، ج٥، ص: ٢٦٢.

[٩٥] – الطبري، جامع البيان، (مصدر سابق)، مج٩، ج١٦، ص: ٧٢–٧٣.

[٩٦] – طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، (مرجع سابق)، ج٢، ص: ١٣٣.

[٩٧] – سورة مريم، الآية: ٢٦.

[٩٨] – طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، (مصدر سابق)، ج٢، ص: ١٣٣–١٣٤.

[٩٩] – انظر: الزمخشري، الكشاف، (مصدر سابق)، ج٣، ص: ١٤.

[100] – المصدر السابق، ص: ١٤.

[101] – طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، (مرجع سابق)، ج٢، ص: ١٣٤.

[102] – سورة مريم، الآية: ٢٨.

[103] – طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، (مرجع سابق)، ج٢، ص: ١٣٥.

[104] – سورة مريم، الآية: ٢٩.

[105] – الرازي، التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٢١، ص: ١٧٨.

[106] – سورة مريم، الآيات: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣.

[107] – التفسير الكبير، (مصدر سابق)، ج٢١، ص: ١٧٨–١٧٩.

[108] – المصدر السابق، ج٢١، ص: ١٨٣.

[109] – المراغي، تفسير المراغي، (مرجع سابق)، مج٦، ج١٦، ص: ٤٨.

[110] – المرجع السابق، ص: ٤٨.